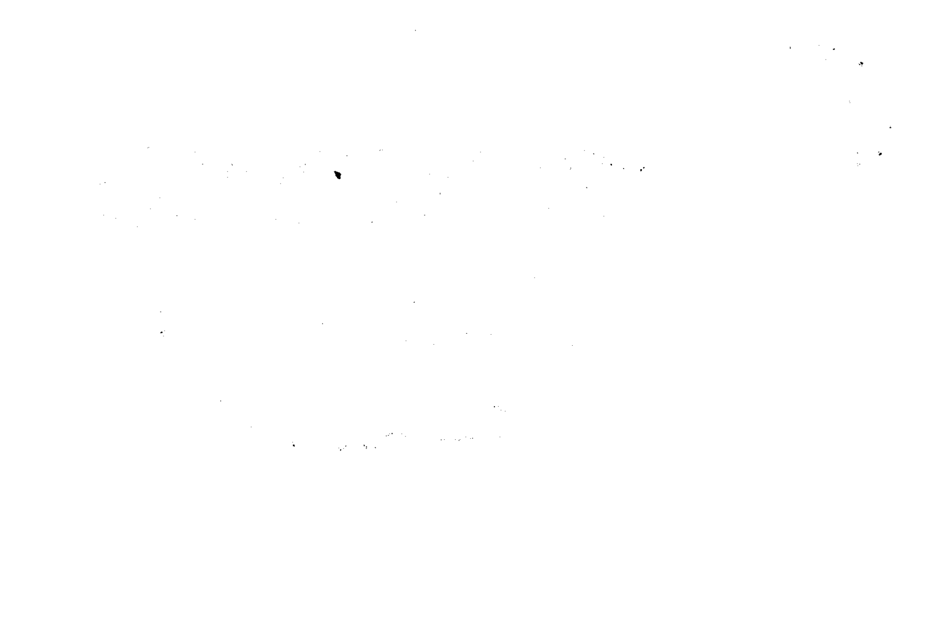
دراسة الباقلانى للنظم القرآنى
فى كتابه إعجاز القرآن
تحليل ونقد

بقلم الدكتور
عبد العزيز أبو سريع ياسين

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ — ١٩٩١م





الإهداء

إلى الله ، لا أشرك مع الله أحدا
إلهى ، أنت مقصودى ، ورضاك مطلوبى

عبد العزيز أبو سريع ياسين

تصـــدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبـــد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين .

والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي العظيم ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين ، عدد معلومات الله الحي العلي العظيم .

وبعـد :

فعلى الرغم من مضى ما يزيد على الألف عام على دراسة الباقلاني للنظم القرآني نجد هذه الدراسة مايفتأ نورها يجذب الأنظار فتحدق فيها ، ويلفت العقول فتنتبه إليها ، ولقد شاء السميـع العليم أن ألتفت يوماً إلى نور هذه الدراسة ، ويوماً آخر لـكتب تناولتها بالتحليل والتعليق ، فإذا بي أجد القلم يعتمل في يدي يريد أن يقول شيئا ، ولما أذن الله سبحانه وتعالى له أن يكتب وجدته يكتب هذا البحث ، ووجدتني أدعو له قائلا : اللهم أنطق هذا القلم بصواب القول بتوفيق من عندك ، وكفه عن الهذر واللغو بكريم من لطفك ، واللهم اجعل هذا القول في ميزان حسنات صاحبه يوم لقائك يارب العالمين ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

عبد العزيز أبو سريع ياسين

توطئة

حاجة الموضوع إلى بحث :

وجدتنى يوماً أطالع دراسة الباقلانى للنظم القرآنى فى كتابه إعجاز القرآن ، ووجدتنى يوماً آخر أطالع بعض البحوث التى كتبت حول هذه الدراسة فراعنى أن بعض هؤلاء الباحثين قد اضطرب فى تحديد موقفه منها ، فمرة يشيد بها ومرة يذمها مثل الأستاذ الأديب مصطفى صادق الرافعى(١) ، كما راعنى أيضا أن بعض الباحثين يتعدى جانب دراسة الباقلانى إلى تجريح شخصيته مثل الدكتور زكى مبارك(٢) ، على أننى قد وجدت أيضا من يشيد بمنهج الباقلانى وخطته فى هذه الدراسة مثل الدكتور محمد زغلول سلام(٣) ،

---

(١) يقول الرافعى مشيداً - انظر إعجاز القرآن ص ١٥٢ - : « جاء القاضى أبو بكر الباقلانى الذى أجمع المتأخرون من بعده على أنه بابٌ فى الإعجاز على حدة » ، ويقول ذاماً عائباً - انظر إعجاز القرآن ص ١٥٣ : وكان رحمه الله واسع الحيلة فى العبارة ، مبسوط اللسان إلى مدى بعيد ، فجاء كتابه وكأنه فى غير ما وضع له ، لما فيه من الاغراق فى الحشد ، والمبالغة فى الاستعانة ، والاستراحة إلى النقل » .

(٢) من أمثلة زكى مبارك فى تجريح شخصية الباقلانى قوله عقب نقل رأى الباقلانى فى نفى السجع - انظر النثر الفنى فى القرن الرابع ٢/٩٦ - : « وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود فى القرآن ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده فى القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والإعجاز فى رأيه ينحصر فى الأسلوب ، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فإنه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام ! ونحن لاندرى كيف اتفق للباقلانى وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم » .

(٣) يقول الدكتور محمد زغلول سلام - انظر أثر القرآن فى تطور النقد العربى =

من هنا وجدت أن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث يتحرى حقيقة الأمر فكانت هذه الوريقات التى أردت أن أمحص بها هذه القضية ، وأقدمها محايداً لمن يريد معرفتها .

العناصر الدراسية لهذا البحث :

يمكن أن نصوغ هذه العناصر فى عدة أسئلة يسلم بعضها الأفكار إلى بعض على النحو التالى :

من هو الباقلانى ؟

ولم درس النظم القرآنى ؟

وما خطته التأليفية فى هذه الدراسة ؟

وما الجهود التى قدمها فيها ؟

وما قيمة هذه الجهود فى الدرسين البلاغى والنقدى ؟

من هو الباقلانى :(١)

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلانى

==٣٠٢/٣٠٣ - « تعرض الباقلانى لكل ما يمكن أن يتعرض له ناقد حديث حين يطالب بنقد نص وبيان رأيه فيه ، نقد النص نقداً موضوعياً على أساس فهم سليم له ، ثم التأثر بما يوحيه من المعانى والكشف عنها ، وبيان الرأى فيها بالاستعانة بدراسات اللغة . ومقاييس الأسلوب الجميل ، ثم الأسلوب الجميل ، ثم الأثر النفسى الذى يكمن وراء النص ، أو الانفعال الذى أثار قائله ، وقدرته على التعبير ، وأداء ذلك المعنى ، ثم الأثر النفسى للنص فى السامعين أو القارئين ... إلخ » .

(١) راجع فى ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٨/٢ ط ١ مكتبة النهضة س ١٣٦٧ هـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، شذرات الذهب لابن العماد ١٦٨/٣ طبع القدسى ١٣٥٠ هـ ،تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٧٦/٥ طبع السعادة ١٣٤٩هـ.

أو ابن الباقلانى . والباقلانى نسبة إلى الباقلاء (الفول) التى كان والده يبيعها ، وهى نسبة شاذة لزيادة النون ، ونظيرها صنعانى فى النسبة إلى صنعاء .

ولد بالبصرة ، ولم يعين أحد من المؤرخين عام ولادته(١) ، وتلقى العلم بها ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن علمائها حتى جلس فيها مجلس التدريس ، واستقر به المقام هناك ، ولكنه عاد بعد حين إلى البصرة مرة أخرى ، وظل فيها حتى استدعاه عضد الدولة (أعظم ملوك بنى بويه) إلى شيراز مقر حكم دولة البويهيين فى فارس . ولما انتقلت بغداد إلى البويهيين رحل إليها الباقلانى ملازماً لعضد الدولة ثم ابنه صمصام الدولة الذى كان الباقلانى معلماً له ، وظل بها حتى قضى نحبه فى يوم السبت لسبع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ، وقد صلى عليه ابنه الحسن ، ودفن أولا فى داره ، ثم فى مقبرة باب حرب ، ثم فى مقبرة بقرب قبر أحمد بن حنبل ، وقد حضر أبو الفضل التميمى الحنبلى (٣٤١ — ٤١٠ هـ) يوم وفاته العزاء حافياً مع إخوته وأصحابه ، وأمر أن ينادى بين يدى جنازته (هذا ناصر السنة والدين، هذا إمام المسلمين ، هذا الذى كان يذب عن الشريعة ألسنة المخالفين ، هذا الذى صنف سبعين ألف ورقة رداً على الملحدين) .

تتلمذ الباقلانى على أعلام العلماء فى عصره ، ومنهم أبو الحسن الباهلى ، وأبو عبد الله بن مجاهد الطائى ، وهما من أعرف العلماء بمذهب أبى الحسن الأشعرى ، وقد تلقى عليهما علما الأصول والكلام ، وأبو بكر أحمد ابن جعفر القطيعى ، راوى مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وقد أخذ عنه

---

(١) ورجح الدكتور عبد الرءوف مخلوف الذى درس حياة الباقلانى بتفصيل وإسهاب فى أطروحته لدرجة الدكتوراه (الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن) أن يكون قد ولد فى العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى - راجع ص ٧٣ من هذه الأطروحة المطبوعة ١٩٧٨ م - دار مكتبة الحياة (بيروت) .

الحديث ، وأبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى ، أحد أئمة الأدب فى عصره ، وقد أخذ عنه علم الأدب الشعر .

وقد اشتهر الباقلانى بالمناظرة والجدل ، ومن أهم مناظراته : مناظرته للمعتزلة حول مسائل التكليف ورؤية البارى ... فى مجلس عضد الدولة عقب دخوله مجلسه لأول مرة ، ومناظرته حول طوالع الكواكب بالسعد أو النحس لأبى سليمان المنطقى أمام أبى القاسم المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة عند تهيء الباقلانى للخروج إلى القسطنطينية فى مهمة رسمية لبلاده ، ومناظرته لبعض المطارنة والقساوسة فى بلاد الروم حول بعض المعتقدات الدينية المسيحية والإسلامية .

ومن مؤلفاته التى تزيد على النيف والخمسين : كتاب التمهيد ، وكتاب هداية المسترشدين والمقنع فى معرفة أصول الدين ، وكتاب الانتصار لصحة نقل القرآن والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان ، وكتاب الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين وكتاب الأصول الكبير فى الفقه ، وكتاب إعجاز القرآن الذى نحن بصدد دراسة النظام القرآنى فيه إن شاء الله ...

لم درس الباقلانى فى النظم القرآنى ؟

يجيب الباقلانى فى مطلع كتابه إعجاز القرآن عن هذا السؤال فيذكر ما يمكن أن نستنبط منه الأسباب الآتيه(١) .

١ ـ أهمية هذا الموضوع عن الموضوعات الأخرى التى شغل العلماء بها أنفسهم من جهة أنه يتعلق بأصل الدين ، كما أنه الركيزة التى إذا تأصلت، تأصلت عليها نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ ما صنفه العلماء فى هذا الموضوع ليس كافياً ولا محققاً للغرض مما جعل هناك فراغاً فيه .

---

(١) راجع إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣ ـ ٧ .

٣ — سؤال الناس له ملء هذا الفراغ وثقتهم بقيامه بهذه المهمة خاصة بعد أن عاد الأمر إلى مثل سيرته الأولى عند بداية ظهور هذا النظم الكريم من الخوض فيه تشكيكاً وطعناً بأن سحر أو شعر .. إلخ .

٤ — فزع الباقلانى من تطاول الجهلاء على النظم القرآنى ، وعدم اكتفائهم بمعادلته للشعر ، وتجاوز ذلك إلى تفضيل بعض الشعر عليه ، وإحساسه أن ذلك يفرض عليه فرضاً القيام بدراسة هذا النظم وكبح جماح هذا الاتجاه .

٥ — دقة هذا الموضوع نظراً لاحتياجه إلى عالم متقدم فى كثير من فروع العلم .

خطة الباقلانى التأليفية فى دراسة هذا النظم وهدفه الذى يريد تحقيقه :

يهدف الباقلانى فى دراسته للنظم القرآنى فى كتابه (إعجاز القرآن) إلى غرضين :

أولهما : التقرب إلى الله عز وجل بملء الفراغ الثقافى الهام المتعلق بحديث إعجاز كتاب الله ، أصل الدين ، وأساس بناء نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بعد حكايته قول بعض الباحثين فى الإعجاز : إن الإعجاز القرآنى وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه ، ويكفى عجز أهل العصر الأول فى الدلالة لأنهم خصوا بالتحدى دون غيرهم(١) .

ثانيهما : بيان أن هذا الإعجاز إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر إذا كان كامناً فى سمو بلاغته عن البلاغة البشرية ليس غير .

هذا عن أهدافه ، أما عن خطته فنترك الباقلانى يفصح عنها بنفسه ،

---

(١) انظر ص ٨ إعجاز القرآن .

وتأمل فى هذا المقام قوله : « ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ، ونشير إليه ولا نبسط القول ، لئلا ما يكون ما ألفناه مكرراً ومقولا ، بل يكون مستفاداً من جهة هذا الكتاب خاصة .

« ونصف ما يجب وصفه من القول فى تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع » .

« ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه فى فنون ماينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى الخطاب ، وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول مايبين فيه التفاصح ، وتقصد فيه البلاغة ، لأن هذه أمور يتعمل لها فى الأغلب ، ولا يتجوز فيها » .

« ثم من بعد هذا : الكلام الدائر فى محاوراتهم ، والتفاوت فيه أكثر ، لأن التعمل فيه أقل ، إلا من غزارة طبع ، أو فطانة تصنع وتكلف » .

« ونشير إلى مايجب فى كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظيم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه . وتجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على متأمل »(١) .

ولا ينتهى الباقلانى من عرض خطته التأليفية حتى يعيد ماسبق أن ذكره عن دقة درس النظم القرآنى ، وأنه كما يحتاج إلى عالم من طراز ثقافى خاص فيقول : « ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين مارمنا بيانه ، وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ، لأن

---

(١) انظر ص ٨ ، ٩ إعجاز القرآن .

ذلك مما لا سبيل إليه ، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية ، قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين ، ونظر فى شىء من أصول الدين .

« وإنما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)(١) ، وقال (إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون)(٢)(٣) » .

جهود الباقلانى فى دراسة النظم القرآنى :

من خلال ماذكره الباقلانى فى خطته التأليفية نرى أنه قد حدد جهده تحديداً دقيقاً ، فهو سيدرس أولا النظم البشرى المثالى ، أو على حد تعبيره (مايجب وصفه من القول فى تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع) .

ثم إنه سيدرس ثانيا النظم البشرى المستعمل ، أو كما يقول (ما اختلفت مذاهب مستعمليه ـ أى مستعملى النظم البشرى ـ فى فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى الخطاب ، وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح ، وتقصد فيه البلاغة ، لأن هذه أمور يتعمل لها فى الأغلب ، ولا يتجوز فيها ، ثم بعد هذا : الكلام

---

(١) سورة فصلت آية ٣ .

(٢) سورة الزخرف آية ٣ .

(٣) انظر إعجاز القرآن ص ٧ .

الدائر فى محاوراتهم ، والتفاوت فيه أكثر ، لأن التعمل فيه أقل ، إلا من غزارة طبع ، أو فطانة تصنع وتكلف ، ونشير إلى مايجب فى كل واحد من هذه الطرق) .

على أنه يعتبر كلا هاتين المرحلتين ، تمهيداً للمرحلة الثالثة التى يهدف إليها ، وهى : دراسة النظم القرآنى ، نلمس ذلك من قوله فى تمام عبارته السالفة الذكر أخيراً (ليعرف عظيم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على متأمل) .

هذا ، وتجدر الإشارة فى مقام تحديد الباقلانى لجهوده إلى قوله الواعد (ونحن نبين ماسبين فيه البيان من غيرنا ، ونشير إليه ولا نبسط القول ، لئلا يكون ما ألفناه مكرراً ومقولا ، بل يكون مستفاداً من جهة هذا الكتاب خاصة)(١) .

وبعد ، فإننا سنتابع حديثه فى هذه المراحل الثلاث بحياد تام حتى نبين عن جهده الحقيقى متقربين أيضا بهذا العمل لله العلى الأعلى ، فنقول سائلين الله التوفيق :

المرحلة الأولى : دراسة النظم البشرى المثالى :

يمكن أن نرصد للباقلانى فى الحديث عن هذه المرحلة بحث أمور ثلاثة هى :

١ — نظم اللغة العربية هو النظم المثالى للغات البشرية .

٢ — اختلاف أهل الصنعة فى هذه اللغة على ماهية البلاغة المثالية .

(١) المرجع السابق ص ٦ .

٣ — المفاضلة بين بلاغة النظم الشعرى وبلاغة النظم النثرى .

أولا : نظم اللغة العربية هو النظم المثالى للغات البشرية :

قارن الباقلانى فى الحديث عن هذا الأمر اللغة العربية بغيرها من اللغات فأثبت(١) أنها اللغة التى تتأتى فيها الفصاحة حتى تنتهى إلى حد الإعجاز ، مستأنسا بأنه لا يجد فى القدر الذى يعرفه من الألسنة للشىء الواحد من الأسماء ما يعرف من اللغة العربية ، وكذلك لا يعرف فى هذه الألسنة الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف فى الاستعارات والإشارات ، ووجوه الاستعمالات البديعة ، كما أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ما قد اتفق فى العربية ، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى فى العربية ، وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية ، وفوق ذلك كله استشهد بالقرآن الكريم حيث رفعه الله عز وجل عن أن يجعله أعجمياً فقال عز من قائل (بلسان عربى مبين)(٢) .

هذا ، وقد علق أحد الدارسين لكتاب الباقلانى على هذا الحديث فقال : « وتقتضينا أمانة الدرس أن نقرر أن مثل هذه الدعوى ، أعنى عجز اللغات الأخرى عن الوفاء بما يراد نقله إليها من اللغة العربية ، قد أصبح يدعى على اللغة العربية فى العصر الحاضر ، فكثيراً ما نسمع أن فى اللغات الأجنبية ألفاظا تحمل معانى لا نجد فى لغتنا العربية ألفاظاً تساويها أو تؤديها ، ولعله من هنا كان قيام المجامع اللغوية بالبحث عن الألفاظ المقابلة فى لغتنا لتلك المعانى »(٣) ، ثم نقل أقوال العلماء العرب قبل الباقلانى وبعده معقباً بما يلى :

---

(١) راجع كتاب الباقلانى إعجاز القرآن ص ٣١ ، ٣٢ .
(٢) سورة الشعراء آية ١٩٥ .
(٣) الباقلانى وكتابه وإعجاز القرآن ص ١٤٦ .

« وهكذا لايكون الباقلانى متفرداً فى القول بأفضلية اللغة العربية على ماسواها ، وإنما قبله وبعده قال قولته كثيرون ، وتعقيبى على هؤلاء جميعاً أن أمر اللغة العربية بين سائر اللغات على غير ماذهبوا إليه ، وإنما فى اللغات جميعاً خصائص كالتى نراها فى لغتنا ، فالتشبيه والاستعارة والمطابقة والجناس والترادف والاشتراك اللفظى وكثير من الصور التى عندنا والتى نعتبرها خصائص للغتنا موجود فى اللغات الأخرى »(١) .

ونحن نرى أن هذا الدارس فى تعليقه الأول يقرر عجز علماء عصرنا أكثر مما يقرر خروج دعوى الباقلانى عن حد الاعتدال إلى المبالغة ، يؤكد ذلك مناقشة الإمام ابن جنى المفتوحة لهذه القضية وحسمه لها بإثبات تفوق علماء سلفنا من معرفة العربية حيث يقول : « فإن قلت : فإن العجم بلغتهم مشغوفون ، ولها مؤثرون ، ولأن يدخلها شىء من العربى كارهون ، ألا ترى أنهم إذا أورد الشاعر منهم شعراً فيه ألفاظ من العــــربى عيب به ، وطعن لأجل ذلك عليه ، فقد تساوت حال اللغتين فى ذلك ، فأى فضيلة للعربية على العجمية ؟ .

قيل : لو أحسّت العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من الغموض والرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها ، فضلا عن التقديم لهـا والتنويه منها .

فإن قيل : لا ، بل لو عرفت العرب مذاهب العجم فى حسن لغتها وسداد تصرفها وعذوبة طرائقها لم تبء(٢) بلغتها ولا رفعت من رءوسها باستحسانها وتقديمها .

وقيل : قد اعتبرنا ما تقوله فوجدنا الأمر فيه بضده ، وذلك أنا نسأل

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٢) من بأى يبأى - كسعى يسعى - بأوا ، وبأيا : فخر .

علماء العربية ممن أصله عجمي وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده فى نفسه ، وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه ، سألت غير مرة أبا على ـ رضى الله عنه ـ عن ذلك فكان جوابه عنه نحواً مما حكيته .

« فإن قلت : ماتنكر أن يكون ذلك ، لأنه كان عالماً بالعربية ولم يكن عالماً باللغة العجمية ، ولعله لو كان عالماً بها لأجاب بغير ما أجاب به .

« قيل : نحن قد قطعنا بيقين ، وأنت إنما عارضت بشك ، ولعل هذا ليس قطعاً لقطعنا ، ولا يقينا كيقيننا ، وأيضا فإن العجم العلماء بلغة العرب وإن لم يكونوا علماء بلغة العجم فإن قواهم فى العربية تؤيد معرفتهم بالعجمية ، وتؤنسهم بها ، وتزيد فى تنبيههم على أحوالها لاشتراك العلوم اللغوية واشتباكها وتراميها إلى الغاية الجامعة لمعانيها ، ولم نر أحداً من أشياخنا فيها ـ كأبى حاتم(١) وبندار(٢) وأبى على وفلان ـ يسوون بينهما ولا يقربون بين حاليهما ، وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال لوضوحه عند الكافة ، وإنما أوردنا منه هذا القدر احتياطاً به واستظهاراً على مورد له عسى أن يورده »(٣) .

أما التعليق الثانى لهذا الدارس الذى تخصص فى تحليل كلام الباقلانى فنعتقد أنه تحريف لكلام الباقلانى وغيره من العلماء عن مرادهم ، حيث إنه زعم أنهم يرون اختصاص اللغة العربية وانفرادها بالتشبيه والاستعارة والمطابقة والجناس ... إلخ بينما هم فى الحقيقة يقولون بتفوق اللغة العربية على غيرها فى استعمال هذه الألوان الجماليه ، وهذا الذى يقوله الباقلانى وغيره

---

(١) هو سهل بن محمد السجستانى أستاذ المبرد ، مات سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) هو عبد الحميد الكرخى .

(٣) الخصائص ١/٢٤٢ ، ٢٤٣ .

من علماء سلفنا الصالح يعتبر أمراً لا مجال للجدال حوله ، يؤكد ذلك عمالقة باحثي عصرنا الحديث ، ونكتفي هنا بمقولة شيخ الباحثين المعاصرين الأستاذ محمود محمد شاكر ، ونصها كما يلي : « اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً ، قادرة بطبيعتها هي ، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين : كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى ، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه »(١) .

ثانيا : اختلاف أهل الصنعة في ماهية البلاغة المثالية للنظم العربي .

يقول الباقلاني عارضاً آراء المتخصصين في الحديث عن هذا الأمر : « من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين ، والقول الرصين ، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه ، وتروع بهجته ورواؤه ، ويسلس مأخذه ، ويسلم وجهه ومنفذه ، ويكون قريب المتناول ، غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى ، كما قد يختار قوم مايغمض معناه ويقرب لفظه ، ولا يختار ماسهل على اللسان وسبق إلى البيان .

« وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصف زهيراً فقال : كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده » :

« كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا »(٢)

أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه .

« وروى أن جريراً سئل عن أحسن الشعر ؟ فقال : قوله :

إن الشقي الذي في النار منزله والفوز فوز الذي ينجو من النار

---

(١) تقديم الظاهرة القرآنية ص ٣٢ .

(٢) صدره في ديوان سحيم : عميرة ودع إن تجهزت غاديا .

كما أنه فضله أصدق معناه .

« ومنهم من يختار الغلو فى قول الشعر والإفراط فيه ، حتى ربما قالوا : أحسن الشعر أكذبه ، كقول النابغة :

يقد السلوقى المضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

« وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين : فى الغلو والاقتصاد ، وفى المتانة والسلاسة » .

« ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة ، وألطف تعملا ، وأن يتخير الألفاظ الرشيقة للمعانى البديعة ، والقوافى الواقعة كمذهب البحترى » .

« وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام ، الذى يجمع الغريب(١) والمعانى ، مثل أبى عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، والأصمعى » .

« ومنهم من يختار الوحشى من الشعر ، كما اختار المفضل المنصور من المفضليات ، وقيل : إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن »(٢) .

وبعد أن ينتهى الباقلانى من عرض هذه الآراء يعلن عن رأيه فيقول : « والأعدل فى الاختيار ماسلكه أبو تمام من الجنس الذى جمعه فى كتاب « الحماسة » وما اختاره من « الوحشيات » وذلك أنه تنكب المستنكر الوحشى ، والمبتذل العامى ، وأتى بالواسطة .

« وهذه طريقة من ينصف فى الاختيار ، ولا يعدل به غرض يخص لأن الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم فى تفسير مايشتبه على

---

(١) الأولى أن تكون هنا « من البيانية » بدلا من الواو لصحة الأسلوب والمعنى .

(٢) انظر ص ١١٣ - ١١٦ إعجاز القرآن للباقلانى ، فقد نقلنا من هذه الصفحات بتصرف .

غيرهم ، وإظهار التقدم فى معرفته ، وعجز غيرهم عنه ، ولم يكن تصدهم جيد الأشعار لشىء يرجع إليها فى أنفسها .

« ويبين هذا : أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التى فى النفوس وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد ، وأوضح فى الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته(١) فى اللفظ عن الأفهام ، أو يمتنع بتعويص معناه عن الإبانة ، ويجب أن يتنكب ما كان عامى اللفظ ، مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ، سفساف الوضع ، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد ، ولا طريق موطد(٢) .

وبعد ، فلست أجد تعليقا على رأى الباقلانى إلا الموافقة على كل ما قاله فى تحديد ماهية البلاغة المثالية للنظم البشرى الذى يجب أن يكون .

ثالثا : المفاضلة بين بلاغة النظم الشعرى وبلاغة النظم النثرى :

أدار الباقلانى فى الحديث عن هذا الأمر نقاشاً جاداً فقال : « سمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحذق بهذه الصناعة — مع تقدمه فى الكلام — يقول : إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يتأتى فى الشعر ، لأن الشعر يضيق نطاق الكلام ، ويمنع القول من انتهائه ، ويصده عن تصرفه على سننه .

« وحضره من يتقدم فى صنعة الكلام فراجعه فى ذلك ، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة ، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة .

(١) ليس المقصود غرابة اللفظ ولا غموض المعنى ، وإنما المقصود الغرابة الفنية التى تبعث الجمال وتثير الدهشة ، سواء فى اللفظ أو فى المعنى .

(٢) راجع ١١٨/١١٧ إعجاز القرآن .

« ويشهد عنـــدى للقول الأخير ـ الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة ـ : أن معظم براعة كلام العرب فى الشعر ، ولا نجد فى منثورهم ما نجد فى منظومه ، وإن كان قد أحدثت البراعة فى الرسائل على حد لم يعهد فى سالف أيام العرب ، ولم ينقل فى دواوينهم وأخبارهم .

« وهو ـ أى القول الأخير ـ وإن ضيق نطاق القول ، فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه ونواحيه ، فهو إذا تهذب فى بابه ، وأوفى له جميع أسبابه ـ لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ، ولم يعارضه من خطابهم خطاب .

« وقد حكى عن المتنبى أنه كان ينظر فى المصحف ، فدخل إليه بعض أصحابه ، فأنكر نظره فيه ، لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده ، فقال له : هذا المكى على فصاحته كان مفحما !!

« فإن صحت هذه الحكاية عنه فى إلحاده ، عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة فى قول الشعر أمكن وأبلغ »(١) .

مضمون كلام الباقلانى فى هذا النقاش يتلخص فى أمرين :

أولهما : أن أهل العلم والأدب يرون أن الفصاحة والبلاغة تتأتى فى النثر أكثر من الشعر .

ثانيهما : أنه لا مانع عند الباقلانى ـ ولا عند بعض أهل الأدب خاصة المتنبى ـ أن الشعر إذا صادف شروط الفصاحة ، تفوق على النثر فى ميدان الفصاحة والبلاغة .

وتحليل الأمر الأول أن مبنى النثر على أن يكون واضح المنهج ، سهل المعنى ، ممتد الباع ، واسع النطاق ، تدل لوائحه على حقائقه ، وظواهره على بواطنه ، ومبنى الشعر على العكس من ذلك ، إذ هو مبنى على أوزان مقدرة

---

(١) راجع إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٥٥ .

وحدود مقسمة ، وقوافٍ مهيأة ، يساق ما قبلها إليها ، أو بعبارة أدق يدل ما قبلها عليها ، ومن هنا كانت عبارة الباقلاني صريحة بأن أفضل من رأى من أهل العلم والأدب يقول إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يتأتى في الشعر ، ولذلك كانت الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة ، وآلات كثيرة ، أوصلها ابن الأثير(١) إلى سبع آلات هي : حفظ القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم معرفة علم العربية من النحو والتصريف ، ومعرفة المتداول المألوف من اللغة ، ومعرفة أمثال العرب وأيامهم ووقائعهم ، والاطلاع على مؤلفات السابقين من أهل الشعر والنثر ، ومعرفة الأحكام السلطانية ـ أحكام الدولة وقوانينها بلغة عصرنا .

أما تحليل الأمر الثاني فهو أن للشعر مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها ـ كما قال أبو هلال العسكري(٢) ـ من ذلك أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد أراح الأسماع ، وأطرب القلوب ، وهز المشاعر ، ومن ذلك أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب إلا به ، ومن ذلك أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاءت في غاية القباحة ، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر ، احتمل ـ كما يقول أبو هلال ، ومن ذلك أن صاحب المكانة الاجتماعية لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به ، وحنينه إليه ، وشهرته في حبه ، وبكائه من أجله لاستهجن منه ذلك ، وتنقص من مكانته ، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسنا .

---

(١) راجع مقدمة الفصل الثاني في كتابه المثل السائر .

(٢) انظر الصناعتين ص ١٤٢ ـ ١٤٥ .

المرحلة الثانية : دراسة النظم البشرى المستعمل لدى العرب :

تتلخص دراسة الباقلانى لهذه المرحلة فى الحديث عن أمور ثلاثة هى :

أولا : حصر أجناس النظم البشرى المستعمل لدى العرب .

ثانيا : دراسة هذا النظم .

ثالثا : بلاغته .

أولا : حصر أجناس النظم البشرى المستعمل لدى العرب :

ذكر الباقلانى حديث هذا الحصر فى عبارتين :

أولاهما قوله : « الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة »(١) .

وثانيتهما قوله : « قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم ونثر ، وكلام مقفى غير موزون ، وكلام موزون غير مقفى ، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب ، والسجع ، ونظم مقفى موزون له روى »(٢) .

ونحن نرى أن هذا الحديث من اجتهاد شخصى غـــير موفق لأسباب ثلاثة هى :

١ ـ أنه فى واقع الدرس العملى المقارن للقرآن الكريم لم يتتبع سوى ماذكره سابقوه من العلماء ، أعنى الشعر (أو الكلام الموزون المقفى على حد

---

(١) انظر ص ٣٥ إعجاز القرآن للباقلانى .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

تعبيره)(١) ، والخطب ، والرسائل وما يجرى مجراها من كلام المحاورات على حد ماذكر فى خطبته التأليفية التى نقلناها من قبل(٢) .

٢ ـ أنه ذيل عبارته الأولى بالإشارة إلى أن النوع الأخير ـ أعنى الكلام الذى يرسل إرسالا ـ هو الذى تطلب فيه الإصابة والإفادة غافلا عن أن جميع أنواع النظم الفصيح يجب تحقيق ذلك فيها أيضا .

٣ ـ أنه فى عبارته الثانية اعتبر السجع والخطب جنسين من أجناس الكلام غافلا عن أن أولهما يعتبر كيفية من كيفيات صياغة هذه الأجناس(٣) .

كما نود أن ننبه إلى أن هاتين العبارتين من الباقلانى تتناقضان مع ماذكره فى مطلع خطبته التأليفية من انقسام الكلام الفصيح إلى شعر ورسائل وخطب ومحاورات ، إلا إذا قلنا إنه أراد بهذا الحصر حصر كيفية صياغة هذه الأقسام ، وقد نرجح هذه الارادة بإيحاء مطلع عبارته الأولى ، أعنى قوله : (الطرق التى يتقيد بها الكلام المنظوم) .

على أن من يقرأ العبارة الثانية يشعر بأن الباقلانى قد اضطرب اضطرابا شديداً فى تصنيف أجناس الكلام إلى نظم ونثر ، ثم إلى كلام مقفى غير

---

(١) من المعلوم أن صاحب هذا التعريف قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) ـ راجع ص ٦٤ نقد الشعر (تحقيق د . خفاجى) .

(٢) راجع نص كلامه السابق فى خطبته التأليفية ، خصوصا عبارته التى تفيد أن الشعر والرسائل والخطب هى أصول التفاصح فى الكلام ، ثم يلى ذلك فى المرتبة كلام المحاورات .

(٣) سنكشف النقاب عن مصدر هذه الغفلة عند الحديث عن مخالفة النظم القرآنى لصور النظم الحادث عند الباقلانى ، انظر تحليلنا للمرحلة الثالثة من دراسته .

موزون ، وكلام موزون غير مقفى . . إلخ ، وفى تحديد الفرق بين الجنسين الرابع والخامس(١) ، يكون الأخير خاصاً بالسجع والخطب ، هذا فضلا عن أن قارىء هذه العبارة قد يحس بتراجع الباقلانى عن القسم الرابع عندما يقارنه بقوله فى موضع آخر من كتابه بعد التمثيل له بالأبيات :

رب أخ كنت به مغتبطا أشد كفى بعرا صحبته
تمسكاً منى بالود ولا أحسبه يزهد فى ذى أمل
تمسكا منى بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبدا فخاب فيــه أملى

وقد علمنا أن القرآن ليس من هذا القبيل ، بل هذا قبيل غير ممدوح ، ولا مقصود من جملة الفصيح ، وربما كان عندهم مستنكراً ، بل أكثره على ذلك «(٢) .

ثانيا : دراسة النظم البشرى المستعمل لدى العرب :

قبل أن نبدأ مع الباقلانى دراسة هذا النظم نود أن نوضح أساس تصوره لهذه الدراسة فنقول : درس الباقلانى مقاييس واصطلاحات العلماء السابقين عليه فى الحديث عن الكيفية التى يصاغ عليها النظم البشرى (لاحظ أننا سبق أن رجحنا ـ من واقع كلام الباقلانى ـ أنه عند حصره لأجناس النظم البشرى المستعمل كان يقصد إلى حصر كيفية صياغة هذا النظم)(٣) فوجدها الوزن والقافية والروى والسجع ، ثم اجتهد ـ كما قلنا ـ فى تمييز هذا النظم وفق هاته المقاييس فكان أن ذكر الأقسام التى أشرنا إليها من قبل ، ولما كانت ثلاثة المقاييس الأولى ـ أعنى الوزن والقافية والروى ـ تختصر فى اصطلاح واحد هو الشعر، كان الأساس الذى تصوره الباقلانى لدراسة النظم البشرى المستعمل لدى العرب يكمن فى دراسة أمرين : الشعر والسجع .

(١) أعنى بالرابع: الكلام الموزون غير المقفى، وبالخامس: النظم الموزون غير المقفى.
(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٥٦ .
(٣) راجع حديث حصر أجناس النظم البشرى المستعمل لدى العرب .

ولا أنتقل لدراسة هذين الأمرين مع الباقلانى قبل أن أعلق على هذا التصور فأقول : إنه اجتهاد مؤسس على الخلط والاضطراب ، وتصور منحرف عن جادة الصواب ، ذلك أن الشعر جنس من أجناس النظم البشرى بينما السجع كيفية من كيفيات صياغة هذا النظام ، وقد اضطر الباقلانى إلى هذا الأمر من جراء وقوعه تحت تأثير فكرة دينية سنكشف عنها النقاب بعد حين(١) ، لكننا الآن لا يسعنا إلا أن نقول : إن الباقلانى يريد أن ينأى بالنظم القرآنى عن أى مماثلة للنظم البشرى المستعمل الذى يبلغ درجة كبيرة من الترقى فى الفصاحة . تؤكد هذا بصريح قوله عن هذا النظم القرآنى: « إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلامهم ، ومباين لأساليب خطابهم ، ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ، ولا السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفى(٢) ، لأن قوماً من كفار قريش ادعوا أنه شعر ، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعراً ، ومن أهل الملة من يقول : إنه كلام مسجع ، إلا أنه أفصح مما قد أعتادوه من أسجاعهم ، ومنهم من يدعى أنه كلام موزون ، فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب »(٣) .

ولا أنس فى هذا المقام أيضا أن أنوه بأن دراسة هذين الأمرين فحسب إنما يعتبر إخلالا بما سبق أن ذكره عند تحديده لجهده فى مطلع كتابه بأنه سيدرس (فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى الخطاب ، ثم من بعد هذا الكلام الدائر فى محاوراتهم(٤) . إلا إن

(١) ستأتى دراستنا التحليلية لحديث مخالفة النظم القرآنى لصور النظم الحادث عند الباقلانى فى المرحلة الثالثة .

(٢) سبق أن ذكرنا أنه يرى أن هذا القسم غير ممدوح ولا مقصود من جملة الكلام الفصيح .

(٣) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٥٠ .

(٤) راجع خطة الباقلانى لدراسة النظم القرآنى ص ١٢ ، ١٣ من هذا البحث .

كان قد اعتبر سرده لبعض الخطب والرسائل مع شيء من التعليق العام عليها في ثنايا الكتاب دراسة لها .

دراسة الشعر عند الباقلاني :

درس الباقلاني الشعر في اتجاهين : نظري ، وتطبيقي ، واشتمل حديثه في الاتجاه الأول على نشأة الشعر عند العرب ، ثم طريقة صناعتهم له ، أما الاتجاه الثاني ـ الحديث التطبيقي ـ فقد استوات عليه فكرة واحدة عند الباقلاني هي تفاوت العرب في صناعة الشعر ، وسنتتبع ـ الآن ـ حديث الباقلاني في كلا الاتجاهين .

الاتجاه النظري (نشأة الشعر وصناعته عند العرب) :

ذكر الباقلاني صدد الحديث عن نشأة الشعر عند العرب أن العلماء قبله قد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم على ثلاثة آراء هي : «أنه اتفق في الأصل غير مقصود إليه ، على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه قد تألفه الأسماع وتقبله النفوس تتبعوه من بعد وتعلموه ... وقد يحتمل ـ على قول من قال : إن اللغة اصطلاح ـ أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم ... وقد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر ـ يريد مذهب القائلين إن اللغة توقيف من الله ـ ، إنهم وقفوا على ما يتصرف إليه القول من وجوه التفاصح ، وتوافقوا بينهم على ذلك »(١) .

ثم رجح الرأي الأول قائلا : « ويمكن أن يقال : إن التواضع وقع على أصل الباب ، وكذلك التوقيف ، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب ، وإن الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى ، وفطنوا لحسنه

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٣ .

فتتبعوه من بعد وبنوا عليه وطابوه ، ورتبوا فيه المحاسن التى يقع الإطراب بوزنها ، وتهش النفوس إليها »(١) .

ثم يستطراد الباقلانى فى عرض طريقة التعلم فيروى عن أبى عمر غلام ثعلب عن ثعلب أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول ، يوضع على بعض أوزان الشعر كأ ه على وزن :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويسمون ذلك الوضع « المتير » واشتقاقه من المتر ، وهو الجذب أو القطع ، يقال : مترت الحبل ، أى قطعته أو جذبته(٢) .

ونحن نؤيد الباقلانى فى هذا الرأى ونؤكده بما نقله العلماء عن امتداد حلقات علم الشعر إلى الحواضر الإسلامية بعد الفتح الإسلامى ، وفى هذا الصدد ننقل عن أبى هلال العسكرى قوله : « أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى « مدرك » نتعلم منه علم الشعر ، فقال لنا يوماً : إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء ، ثم قال : أجيزوا هذا البيت :

ألا إنما الدنيا متاع غرور

فأجازه واحد من الجماعة بشيء فلم يرضه ، فقلت :

وإن عظمت فى أنفس وصدور

فقال : هذا هو الجيد المختار(٣) .

على أن الباقلانى قد ذكر ـ موافقا ـ ضمن حديث العلماء قبله عن نشأة

---

(١) الموضع السابق .

(٢) الموضع السابق .

(٣) راجع الصناعتين ص ٤٨ .

الشعر أنهم قالوا(١) : إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعراً ، ذلك أن أقل الشعر بيتان فصاعداً ، كما قالوا : إن ما كان على وزن بيتين مختلفى الوزن أو القافية ليس بشعر ، كما قالوا : إن الشعر لا يكون شعراً إلا بقصد القاصد إليه ، كما أن منهم من قال : إن بحر الرجز بصفة خاصة المنهوك منه ، والمشطور - وكذلك ما يقارب به من البحور فى قلة الأجزاء ليس بشعر .

ونحن وإن كنا نوافق على نقله الباقلانى عن العلماء قبله موافقاً عليه نرى أن هـــذه الأقوال إنما تحكى الطريق التدريجى لنشأة الشعر عند العرب ، ونستشهد فى هذا الصدد بإشارة صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء إلى أبيات ذكرها من بحر الرجز قائلا إنها من قديم الشعر ، ونص عبارته هو : « ومما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد ، قال حين حضره الموت :

اليوم يبنى لدويد بيته   لو كان للدهر بلى أبليته(٢)

أو كان قرنى واحداً كفيته   يارب نهب صالح حويته (٣)

ورب غيل حسن لويته   ومعصم مخضب ثنيته »(٤)

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ٥٣/٥٤ .

(٢) البيت : القبر على التشبيه ، وياله من سكن موحش ! يقول : لو كان الدهر مما يبلى لأبليته - عن المحقق .

(٣) القرن - بكسر القاف وسكون الراء - الذى يلقاك ليقاومك ، وهو مثلك أو كفؤك فى البأس والشجاعة ، ويقال : « لرجل واحد » ، إذا كان متقدماً فى بأس أو علم أو غير ذلك ، كأنه لا مثل له ، فهو وحده لذلك ، وضمن « كفيته » معنى رددته ، أى قمت له واضطلعت بحربه ورددته عنى ، والنهب الغنيمة تنتهب ، يذكر ما كان يطيقه فى شبابه ، ويعنون بالصالح : الشيء الذى هو إلى الكثرة .

(٤) الغيل: الساعد الريان الممتلىء، يصف صاحبته بالشباب والنعمة والكرامة

هذا عن نشأة الشعر، أما عن صناعته فإن الباقلانى قد أوضح أن صناعة الشعر لا تعتمد على التعلم فقط، وإنما على الطبع والموهبة أيضا حيث قال: «المفحم قد يعلم كيفية الأوزان واختلافها، وكيفية التركيب، وهو لا يقدر على نظم الشعر، وقد يعلم الشاعران وجوه الفصاحة، وإذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما فى الطبقة العالية، وشعر الآخر فى الطبقة الوضيعة، وقد يطرد فى شعر المبتدىء والمتأخر فى الحذق ـ القطعة الشريفة، والبيت النادر، مما لا يتفق للشاعر المتقدم، والعلم بهذا الشأن فى التفصيل لا يغنى، ويحتاج معه إلى مادة من الطبع، وتوفيق من الأصل»(١).

ثم ينبه الباقلانى إلى أهمية عنصر الثقافة فى صناعة الشعر حيث يقول عن الأفكار والمعانى الشعرية: «هى خواطر يغير بعضها على بعض، ويقتدى فيها بعض ببعض، والغرض الذى يرمى إليه، ويصح التوافى عليه فى الجملة، هو قبيل متداول، وجنس متنازع، وشريعة مورودة، وطريقة مسلوكة، ألا ترى إلى ما روى عن الحسين بن الضحاك، قال: أنشدت أبا نواس قصيدتى التى فيها:

وشاطرى اللسان مختلق التـكـ ... ريه شاب المجون بالنسك

كأنه ـ نصب كأسه ـ قمر ... يكرع فى بعض أنجم الفلك

=على أهلها، والمعصم: موضع السوار من اليد، وأراد اليد نفسها لذكره الخضاب، وهو الحناء أو غيره مما يصبغ به، يعنى أن صاحبته عروس جديدة الخضاب، كنى بالشطر الأول عن تجاوزه الأحراس والمنعة إلى الكريمة الممنعة، وكنى بالشطر الثانى عن غلبته على فؤاد الغانية الحديثة العهد بالزواج، فهى عن التطرف إلى غير زوجها أبعد وأعف ـ راجع النص وشرحه فى الطبعة التى حققها الشيخ محمود محمد شاكر ١/٣١، ٣٢.

(١) انظر ص ٢٩٥ إعجاز القرآن للباقلانى.

قال : فأنشدنى أبو نواس بعد أيام قصيدته التى يقول فيها :

أعاذل أعتبتُ الإمام وأعتبا ... وأعربتُ عمافى الضمير وأعربا
وقلت لساقيها: أجزها فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عنى عقاراً ترى لها ... إلى الشرف الأعلى شعاعاً مطنّبا
إذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل فى داج من الليل كوكبا

قال : فقلت له : يا أبا على . هذه مصالتة(١) ، فقال : أتظن أنه روى لك معنى وأناحى ،(٢) .

ثم روى الباقلانى أن العرب تسمى البيت الواحد يتيما ، وكذلك يقال : « الدرة اليتيمة » ، لانفرادها ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهى « نتفه » ، وإلى العشرة تسمى « قطعه » ، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى « قصيداً » ، وذلك مأخوذ من المخ القصيد ، وهو المتراكم بعضه على بعض(٣) .

---

(١) هذه مصالتة ، أى هذا تجريد للمعنى ، ويقال : أصلت السيف أى جردته . (انظر لسان العرب ، مادة صلت) .

(٢) من حديث التطبيق حول هذه القصة قوله : « إن الخليع (يقصد أبا نواس) قد رأى الإبداع فى المعنى ، فأما العبارات فإنها ليست على ماظنه ، لأنه قوله : « يكرع » ليس بصحيح ، وفيه ثقل بين ، وتفاوت ، وفيه إحالة لأن القمر لايصح تصوراً أن يكرع فى نجم ، وأما قول أبى نواس « إذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المتانة ، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشرب ، ولو فعل ذلك كان أملح ، وقوله : « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذى لابد له منه أو من مثله لإقامة الوزن ، ثم قوله : « خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله ، وهى أن يشرب حيث لاضوء هناك ، وإنما يتناوله ليلا ، فليس بتشبيه مستوفى على مافيه من الوقوع والملاحـــة والصنعة » راجع النص وشرحه فى إعجاز القرآن ص ٢١٦ - ٢١٨ .

(٣) انظر إعجاز القرآن ص ٢٥٧.

ونحن بعد هذا نوافق على كل ماذكره الباقلانى عن حديث الصناعة الشعرية ، خلا نقطة واحدة هى نقطة المعانى الشعرية التى نرى عدم الموافقة عليها إلا إذا اعتبرنا أن الباقلانى يقصد تفوق نسبة المعانى المبتذلة على المعانى المبتكرة ويؤكد عندنا هذا القصد حديث القصة التى أوردها لأبيات الحسين التى أخذ أبو نواس معناها ، كما يؤكد ذلك أيضا قوله : « الشاعر ابن بيته ابن الضحاك أو بيتين ، أو قطعة قطعتين »(١) .

الاتجاه التطبيقى :

ذكرنا من قبل أن هذا الاتجاه تستولى عليه فكرة واحدة عند الباقلانى هى فكرة تفاوت العرب فى صناعة الشعر ، ونريد الآن أن نعلل استيلاء هذه الفكرة على عقل الباقلانى بثلاثة أسباب :

أولها : أن الباقلانى ـ كما أسلفنا ، وكما هو تعبيره المتكرر فى كتابه ـ يرى أن « طريقة الشعر شريعة موردة ، ومنزلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم »(٢) .

ثانيها : أن الباقلانى باعتباره أحد أئمة علماء الكلام يرى أن البشر يعتريهم النقص فى جميع أحوالهم وأقوالهم ، ونستشهد لهذا السبب بقوله : « أنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبر عليه فيه ، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم ، وتجد معنى قد توافدا عليه ، وتوافيا إليه ، فهما فيه شريكا عنان ، وكأنهما فيه رضيعا لبان ، والله يؤتى فضله من يشاء »(٣) .

ثالثها : قلة عدد من يستحق أن يطلق عليه لقب « شاعر » فى رأى الباقلانى ونستشهد لهذا السبب بنقله ـ موافقا ومتضامنا مع سلسلة علماء اللغة والأدب ـ قول الأصمعى : « فرسان الشعر أقل من فرسان الحرب »(٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥ .
(٢) انظر إعجاز القرآن ص ١٨٣ .
(٣) الموضع السابق .
(٤) إعجاز القرآن ص ٢٠٣ .

ثم نقول : إن هذا الاتجاه يمثل آراء الباقلانى وتطبيقاته النقدية فى مجال دراسة الشعر ، وسنعرض - الآن - بعض نماذج من كلامه تشير إلى هذين الأمرين .

رأى الباقلانى فى تحديد من ينقد الشعر :

يقول الباقلانى : « معرفة أجناس الكلام ، والوقوف على أسراره ، والوقوع على مقداره ، شىء - وإن كان عزيزاً - وأمر - وإن كان بعيداً - فهو سهل على أهله ، مستجيب لأصحابه ، مطيع لأربابه ينقدون الحروف ، ويعرفون الصروف »(١) .

مضمون هذا القول يفيد أن الباقلانى يرى أن النقاد أكثر فهماً للأدب من الأدباء أنفسهم ، وهذه حقيقة مسلمة فى الدراسات العربية القديمة ، تحدث عنها ابن سلام فقال « قال قائل لخلف : إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالى ماقلت أنت فيه وأصحابك ، قال خلف : إذا أخذت درهماً فاستحسنته فقال لك الصراف : إنه ردىء ! فهل ينفعك استحسانك إياه ؟ »(٢) .

وتحدث عنها ابن طباطبا فقال : «عيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب ، فما قبله واصطفاه فهو واف ، وماجه ونفاه فهو ناقص ، والعلة فى قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذى يرد عليه ، ونفيه للقبيح منه ، واهتزازه لما يقبله ، وتكرهه لما ينفيه ، أن كل حاسة من حواس البدن إنما تقبل مايتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لاجور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها ، فالعين تألف المرأى القبيح الكريه ، والأنف يقبل المشم الطيب ، ويتأذى بالمنتن الخبيث ، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ، ويمج البشع المر ، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن ، وتتأذى بالجهير الهائل ، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم ، وتتأذى بالخشن المؤذى .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٤٣ .   (٢) طبقات فحول الشعراء ١/٧

« والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ، والجائز المعروف المألوف ، ويتشوف إليه ، ويتجلى له ، ويستوحش من الكلام الجائز الخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ويصدأ له » .

« فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً مصفى من كدر العى ، مقوماً من أود الخطأ واللحن ، سالماً من جور التأليف ، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه ، ولطفت مواجه ، فقبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به » .

« وإذا ورد عليه على ضد هذه الصفة وكان باطلا محالا مجهولا انسدت طرقه ، ونفاه ، واستوحش عند حسه به ، وصدىء له ، وتأذى به كتأذى سائر الحواس بما يخالفها على ماشرحناه » .

« وعلة كل حسن مقبول الاعتدال ، كما أن علة كل قبيح منفى الاضطراب »(١) .

أما فى الدراسات الغربية التى تأثر بها معظم ناقدينا الآن فإن الأدباء غالباً مايعلنون أنهم هم المسئولون عن النقد ، مثلما هم المسئولون عن الإبداع الأدبى ، بل إنهم غالباً مايهاجون النقاد ويعنفون عليهم ، وفى هذا المقام ننقل عن « ديجا » أحد الفنانين الغربيين قوله : « إن رجال الأدب يشرحون الفنون دون فهمها »(٢) ، ولعل من أسباب ذلك فى هذه الدراسات - كما يقول جان برتليمى صاحب كتاب بحث فى علم الجمال - أن « الإبداع الفنى يتميز بالتجديد الدائم ، وباختراع أساليب جديدة ، وطرق تعبير لم يسبق استخدامها ، والناقد لايستطيع الحكم على العمل الجديد إلا فى ضوء قواعد مستقاة من معلومات اكتسبها من أعمال سابقة »(٣) .

---

(١) عيار الشعر ١٩ — ٢١ .

(٢) بحث فى علم الجمال ص ١٤ . (٣) الموضع السابق .

رأى الباقلانى فى نقاد عصره :

كما رأى الباقلانى قلة من يستحق أن يطلق عليه لقب « شاعر » رأى أيضا قلة من يستحق أن يطلق عليه لقب « ناقد » ، وننقل فى هذا الصدد قوله : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر »(١) ، ثم تعليله لهذا القول بأن كثيراً منهم يذهبون عن محاسن ولا يعرفونها ، بل - إنهم على حد تعبيره - « ينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافاً كثيراً »(٢) .

ونحن نعقب على هذا الرأى قائلين للباقلانى : إن النقد تذوق ، وإن التذوق أمر ذاتى ، واختلاف آراء النقاد إنما هو نتيجة طبيعية لاختلاف ذواتهم ، وقد نستشهد على ما نقول بحديث الأبيات التى ذكرها الباقلانى نفسه مدليا برأيه فيها ، وهو فى هذا الرأى يختلف مع غيره من النقاد الذين كتبوا عنها قبله ، كما أن غيره من النقاد الذين أتوا بعده قد اختلفوا معه فى الرأى ، وهذه الأبيات هى :

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا	ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطى الأباطح

ورأى الباقلانى فيها أنها من الشعر الحسن ، الذى يحلو لفظه ، وتقل فوائده ، ذلك أنها عبارة عن ، ألفاظ بديعة المطالع والمقاطع ، حلوة المجانى(٣)

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٠٣ .

(٢) الموضع السابق .

(٣) فى لسان العرب (مادة جنى) : الجنى : الكلأ ، والجنى : الكمأة ، وأجنت الأرض : كثر جناها .

والمواقع ، قليلة المعانى والفوائد »(١) .

فإذا عدنا إلى ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) وجدناه يقول عنها : « إن فائدة هذا الشعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله إلى بلده ، وسروره بالحاجة التى وصفها من قضاء حجه ، وأنسه برفقائه ومحادثتهم ، ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطى كما تسيل بالمياه ، فهو معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر »(٢) .

أما الإمام عبد القاهر الجرجانى - بعد الباقلانى - فإنه يقول عنها « انظر إلى الأشعار التى أثنوا عليها من جهـــة الألفاظ ، ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدماثة(٣) ، وقالوا : كأنها الماء جرياناً والهواء لطفاً ، والرياض حسناً ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم ، وكأنها الديباج الخسروانى فى مرامى الأبصار ، ووشى اليمن منشوراً على أذرع التجار ، ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز فى الرأى ، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ، واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن ، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذى هو كالزيادة فى التحديد ، وشىء داخل المعانى المقصودة مداخلة الطفيلى الذى يستثقل مكانه ، والأجنبى الذى يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت فى نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ، واعتمد دليل حال غير مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح ، وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٢٢ .

(٢) عيار الشعر ص ١٣٨ .

(٣) الدماثة : السهولة (راجع لسان العرب مادة : دمث) .

قال (ولما قضينا من منى كل حاجة) فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ، ماوليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، وشجون الحديث أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة والتلويح والرمز والايماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان .

« ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفى التوجه إلى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطاءة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السهل السريع زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا ، ثم قال (بأعناق المطى) ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالبا فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها(١) وصدورها وسائر أجزائها تستند إليها فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة ، ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا فى أنفسها بأفاعيل لها خاصة فى العنق والرأس ، ويدل عليهما بشمائل مخصوصة فى المقاديم » .

---

(١) هواديها : أعناقها .

« فقل - الآن - هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة، ولو ذكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه، حتى تكون فى ذلك كالجوهرة التى هى - وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها، واكتست رونقاً بمضامة أترابها - فإنها إذا جليت للعين فردة، وتركت فى الخيط فذة، لم تعدم الفضيلة الذاتية، والبهجة التى فى ذاتها مطويه، والشذرة(١) من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها فى القلادة، واكتنافها لها فى عنق الغادة، وصلتها بريق حمرتها، والتهاب جوهرها، بأنوار تلك الدرر التى تجاورها، ولألاء اللآلىء التى تناظرها، تزداد جمالا فى العين، ولطف موقع من حقيقة الزين، ثم هى إن حرمت صحبة تلك العقائل، وفرق الدهر الخئون بينها وبين هاتيك النفائس، لم تعر من بهجتها الأصلية، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية.

«كلا، ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ، وإن كان لا يبعد أن يتخيله من ينعم النظر، ولا يتم التدبر، بل حق هذا المثل أن يوضع فى نصرة بعض المعانى الحكمية والتشبيهية بعضا وازدياد الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلا، وأن يصل الذكر بين متدانيات فى ولادة العقول إياها، ومتجاورات فى تنزيل الإفهام لها »(٢).

والفرق بين هذه الآراء - فى إيجاز - أن الباقلانى يرى أن هذه الأبيات قليلة المعنى والفائدة، أما ابن طباطبا فيرى أن المعنى فيها مستوفى على قدر مراد الشاعر، وهذا يكفى فى حسن معنى الشعر وجودته، أما الإمام عبد القاهر الجرجانى فيرى أن حقها أن توضع فى نصرة بعض المعانى الحكمية

---

(١) الشذرة : القطعة من الذهب مخلوطة بالتراب وهى فى معدنها .
(٢) انظر أسرار البلاغة ١/١١٣ - ١١٦ .

والتشبيهية بعضا، وازدياد الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلا، وأن يصل الذكر بين متدانيات فى ولادة العقول إياها، ومتجاورات فى تنزيل الافهام لها.

من آراء الباقلانى فى الشعر :

قوله : « مراعاة الفواتح والخواتم، والمطالع والمقاطع، والفصل الوصل بعد صحة الكلام، ووجود الفصاحة فيه ـ مما لابد منه، والإخلال بذلك يخل بالنظم، ويذهب رونقه، ويحيل بهجته، ويأخذ ماءه وبهاءه »(١) .

وقوله : « يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقته، ومن أهل عصره ومن هو فى مضماره أو فى منزلته، ... كذلك أبو نواس . إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير، والتفاوت القليل، ... من يقول بتقدم البحترى فى الصنعة به من الشغل فى تفضيله على ابن الرومى أو تسوية ما بينهما مالا يطمع معه فى تقديمه على امرىء القيس ومن فى طبقته، ونحن وإن كنا نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومى وغيره من أهل زمانه ـ نقدمه بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله »(٢).

خطة الباقلانى التى طبقها فى نقده للشعر :

أعلن الباقلانى خطته النقدية التى يرتضيها للشعر عندما قال: « أصل الباب فى الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة، ثم يتعمل الألفاظ ولا ينظر بعد ذلك

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤١ .

(٢) هذا القول مختار من إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢١٦ ، ٢٤٣ ، وهو يعنى أن البحترى مقدم على ابن الرومى وغيره ممن هـــو فى طبقته، لكن امرأ القيس مقدم عليهما بحكم أنه طبقة أرقى فى فصاحته من طبقتهما .

إلى مواقعها ، ولا يتأمل مطارحها ، وقد يقصد تارة إلى تحقيق الأغراض ، وتصوير المعانى التى فى النفوس ، ولكنه يلحق بأصل بابه ، ويميل بك إلى موضوعه ، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل »(١) .

تعليقى على هذه الخطة ليس موجها للباقلانى فى حقيقة الأمر ، وإنما أوجهه إلى الأستاذ السيد أحمد صقر ، محقق الكتاب ، ذلك أن هذا النص - فى رأيى - كان يحتاج منه إلى وقفة متأنية لتصحيحه ليتفق مع أفكار الباقلانى التى اتبعها فى حديثه الناقد للشعر ، والمتأمل للقرآن ، ذلك أنى أرى أن قوله « جملة القصة » يمكن أن يكون « جملة القصيدة » ، كما أن قوله « يتعمل الألفاظ » وقوله « ولا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها ، ولا يتأمل مطارحها » يحتاج لتدقيق أكبر ليتفق مع النقد التطبيقى للباقلانى على امتداد كتابه ، نؤكد هذا بقوله فى التقديم الحديث علم إعجاز القرآن البلاغى : « واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه ، وهو أدق من السحر وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر .

« وكيف لا يكون كذلك : وأنت تحسب أن وضع « الصبح » فى موضع « الفجر » يحسن فى كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعا ؟ وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها ، وتجد الأخرى - لو وضعت موضعها - فى محل نفار ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار »(٢) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٤ .

نموذج من النقد التطبيقى للباقلانى :

قال الباقلانى فى نقده التطبيقى لشعر البحترى «وأما قوله :

ذنب ـ كما سحب الردا ـ يذب عن عرف ، وعرف كالقناع المسبل
تتوهم الجوزاء فى أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل

، فالبيت الأول وحش الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام ، وقد ذكرنا أنه لايهتدى لوصل الكلام ، ونظام بعضه إلى بعض ، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه .

وكان يحتاج أن يقول : ذنب كالرداء ، فقد حذف ، والوصل غير متسق ولا مليح ، وكان من سبيله أن لايخفى عليه ، ولا يذهب عن مثله .

ثم قوله : (كما سحب الرداء) قبيح فى تحقيق التشبيه ، وليس بواقع ولا مستقيم فى العبارة إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء !

وقوله (يذب عن عرف) ليس بحسن ولا صادق ، والمحمود ماذكره امرؤ القيس ، وهو قوله :

فويق الأرض ليس بأعزل(١)

وأما قوله : (تتوهم الجوزاء فى أرساغه) فهو تشبيه مليح ، ولكنه لم يسبق إليه ، ولا انفرد به :

ولو نسخت لك ماقاله الشعراء فى تشبيه الغرة بالهلال ، والبدر ، والنجم ،

---

(١) نقل المحقق بيت امرىء القيس بتمامه ، ونصه
ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل
ضاف : سابغ ، سد فرجه : أى فرج ما بين فخذيه ، يريد كثرة الذنب ، والعزل : أن يعزل ذنبه فى أحد الجانبين ، وذلك عادة لا خلقة ـ انظر حاشية ص ٢٣١ عند المحقق .

وغير ذلك من الأمور ، وتشبيه الحجول - لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها ، وأمور مليحة قد ذهبوا إليها ، وليس ذلك موضع كلامنا ، فتتبع ذلك فى أشعارهم تعلم ما وصفت لك .

واعلم أنا تركنا بقية كلامه فى وصف الفرس لأنه ذكر عشرين بيتاً فى ذلك ، والذى ذكرناه فى هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يعدو ما تركناه أن يكون حسناً مقولا ، وبديعاً منقولا ، أو يكون متوسطا إلى حد لا يفوت طريقة الشعراء .

« ولو تتبعت أقاويل الشعراء فى وصف الخيل ، علمت أنه وإن جمع فأوعى ، وحشر فنادى ، ففيهم من سبقه فى ميدانه ، ومنهم من ساواه فى شأوه ، ومنهم من داناه ، فالقبيل واحد ، والنسيج متشاكل ، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم فى ذلك لتقف على ما قلت »(١) .

قبل التعليق على هذا النص النقدى من الباقلانى أود أن أقول : إن الباقلانى عالم ذو ثقافة نقدية كبيرة ، ذلك أننى تتبعت كثيراً من نقده الشعرى فوجدته إشارات علمية لنقاد سابقين عليه فى أغلب الأحيان ، ومن ثم أقول للذين يصفون الباقلانى ونقده الشعرى بالتحامل(٢) ، أو عدم توفر الذوق المستقيم(٣) ، أو عدم الغناء والفائدة(٤) : إن الباقلانى لا يجوز أن يوصف هو أو نقده بهذه الصفة ، لأنه - فى غالب هذا النقد - لا يبدأ من فراغ ، والصحيح - عندى - أنه ناقد ألمعى يعمق إشارات سابقيه كى يحقق

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) انظر دراسة السيد أحمد صقر فى تقديمه لكتاب الباقلانى قبل تحقيقه ص ٨١ ، ودراسة الدكتور زكى مبارك لكتاب الباقلانى ضمن كتابه النثر الفنى فى القرن الرابع ٧٥/٢ — ٧٦ .

(٣) انظر النقد المنهجى عند العرب للدكتور محمد مندور ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٠ .

هدفه الذى وضعه نصب عينية ، وهو كبح جماح المغالين فى تفضيل الشعر، المتجرئين على موازنته بالقرآن ، فضلا عن تحقيقه للفكرة العامة التى أقام عليها دراسته للنظم البشرى كله ، أعنى فكرة التفاوت فى صناعة هذا النظم استناداً لما يراه علماء الكلام من أن البشر يعتريهم النقص فى جميع أحوالهم وأقوالهم .

وقد أزعم فى تأكيد ما أقول أن الإمام عبد القاهر كان يؤصل فكرة الباقلانى ويدافع عنها ويبرهن عليها حين عدل فى كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة عن تحليل آيات كتاب الله إلى تحليل صور النظم البشرى الشعرى خاصة حيث قدم للدارسين جذور التفاوت فى صناعة هذا النظم(١) .

ثم أقول فى التعليق على نقد الباقلانى : إنه إيضاح الإشارة العلمية التى أفصح عنها الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) فى موازنته بيت البحترى الأول : « هذا

(١) يجب ملاحظة أننا إذا كنا نشكر الباقلانى على ماقام به من خدمة لكتاب الله العزيز فإننا لا نعفيه من أن يقع فى المغالاة فى تهوين الشعر أحيانا ، أو من أن يغفل فيعتريه ما يعترى البشر من المؤاخذة فى النقد أحيانا أخرى ، ذلك أن هذا أمر طبيعى يحدث من أى ناقد ، على أننا بعد ذلك نقول : لم لا نلتمس له العذر فنقول : إن ماحدث منه من هذا القبيل - على الرغم من قلته حيث نرى النقاد الذين يعيبونه يكرر بعضهم كلام بعض حول مثال واحد أو مثالين من نقده على امتداد كتابه - أقول : لم لا نقول : إنه رد فعل معا كس لما حدث فى عصره من تطور متطرف كان يهدف إلى هدم قدس أقداس الإسلام (كتاب الله العزيز) !! ، ونستأنس فى هذا المقام بقول زكى مبارك المؤسف عن الباقلانى ونقده : إن الذى يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل ، وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوىء القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهل أو يغض من قيمتها وهو فى مقابل ذلك يجد فى البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ، ولا يستبيح لنفسه التفكير فى وضع ألفاظها أو معانيها وأغراضها أو أسلوبها موضع النقد - انظر هذا النص فى النثر الفنى فى القرن الرابع ٧٦/٢ .

خطأ من الوصف ، لأن ذنب الفرس ـ إذا مس الأرض ـ كان عيباً ، فكيف إذا سحبه ، وإنما الممدوح من الأذناب ماقرب من الأرض ولم يمسها ، كما قال امرؤ القيس (بضاف فويق الأرض ليس بأعزل) ، فقال : فويق ، أى فوق الأرض بقليل »(١) .

والباقلانى فى هذا الإيضاح لكلام الآمدى ـ إن صح أنه قد أخذه عنه كما نعتقد ـ صاحب جهد مشكور يجب أن يذكر ولا ينكر بالقياس إلى ابن سنان الخفاجى (ت٤٦٦) الذى كرر كلام الآمدى بعينه دون إضافة(٢) .

ويجب إحقاقاً للحق إذا ما أثبتنا فضل الباقلانى أن نقر بتفوق الشريف المرتضى عليه فى الفضل ، حيث ناقش كلام الآمدى فقال : « أول ما نقوله : إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه فى كلامه التحقيق والتحديد ، فإن ذلك متى اعتبر فى الشعر بطل جميعه ، وكلام القـــوم مبنى على التجوز والتوسع والاشارات الخفية والإيماء على المعانى تارة من بعد ، وأخرى من قرب ، لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق ، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ، ويفهم أغراضهم .

« وإنما أراد البحترى بقوله (ذنب كما سحب الرداء) المبالغة فى وصفه بالطول والسبوغ ، وأنه قد قارب أن ينسحب ، وكاد يمس الأرض ، لا أنه ينجر على الأرض حقيقة ، ووكلنا فى تخليص معناه وتفصيله إلى العادة الجارية

---

(١) انظر الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ص ٣٧١ .

(٢) قال ابن سنان الخفاجى ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ « عيب قول أبى عبادة :

ذنب كما سحب الرداء يذب عن … عرف وعرف كالقناع المسبل

وقول امرىء القيس قبله :

لهـــا ذنب مثل ذيل العروس … تسد به فرجها من دبر

وقيل : المحمود من ذنب الفرس أن يكون طويلا ولا ينال الأرض كما قال امرؤ القيس :

كميت إذا استدبرته سد فرجة … بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

لنظرائه من الشعراء فى استعمال مثل اللفظ الذى استعمله ، وقد قال بعضهم فى ثقل العجيزة .

تمشى فتثقلها روادفها فكأنها تمشى إلى خلف

وقال المؤمل :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تد خل أردافها غدا(١)

دراسة السجع عند الباقلانى :

تعتبر دراسة الباقلانى للسجع - إذا ما قورنت بدراسته للشعر - هشة ومضطربة ، أما من جهة أنها هشة فلأنه لم يذكر سوى معلومات بسيطة جداً عنه ، وأما من جهة أنها مضطربة فلأنه قد تناقض مع نفسه فى كثير من المسائل ، وتفصيل ذلك على ما سيأتى :

ذكر الباقلانى من حيث المعلومات عن السجع أنه :

١ - لون من ألوان الكلام المعروف عند العرب المألوف لديهم ، خاصة طبقة الكهان منهم(٢) .

٢ - أمر يستريح إليه الكلام فينفصل بعضه عن بعض مثل القافية فى الشعر ، وفى هذا الصدد ينقل عن أهل اللغة(٣) أنهم يسمونه سجعاً ، باعتبار أنه موالاة الكلام على وزن واحد ، ومن ذلك قول ابن دريد : سجعت الحمامة ، معناه : رددت صوتها ، وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجع تميل بها ضحواً غصون نوائع

النوائع : الموائل ، من قولهم : جائع نائع ، أى متمايل ضعفاً «(٤)» .

(١) انظر القسم الثانى ص ٩٥ ، ٩٦ من أمالى المرتضى (بتصرف) .
(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٥٨ ، ٦٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٧ ، ٦١ . (٤) المرجع السابق ص ٥٧ .

لكنه يعقب على هذه المعلومة بما يفيد رفضها حتى من حيث التسمية فيقول : « لا معنى لقولهم : إن ذلك ـ أى معنى السجع ـ مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروى غير مختلف ، لأن ماجرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ، ولو بنى عليه لكان الشعر سجعاً ، لأن رويه يتفق ولا يختلف ، وتتردد القوافى على طريقة واحدة ، وأما الأمور التى يستريح إليها الكلام فإنها تختلف : فربما كان ذلك يسمى قافية ، وذلك إنما يكون فى الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان مقاطع السجع ، وربما سمى ذلك فواصل »(١) .

٣ ـ السجع من الكلام عند الباقلانى هو مايتبع المعنى فيه اللفظ ، ويكون مقصوداً إليه ، بمعنى أنه يستجاب فى الكلام لتحسين اللفظ دون تصحيح المعنى(٢) .

٤ ـ للسجع عند الباقلانى منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط ، وهو قسمان : ممدوح ومذموم ، فالممدوح هو ما سار على النهج الصحيح المرسوم له ، أى الذى يتبع المعنى فيه اللفظ ، وتماثلت فيه فقرتى السجع فى الوزن والفاصلة(٣) ، مثل قول أبى طالب لسيف بن ذى يزن : أنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، ونبت زرعه ، فى أكرم موطن ، وأطيب معدن .

والمذموم هو ما خالف هذا المنهج الصحيح للسجع ، وتفاوتت أوزان فقره ، وهذا النوع المذموم يخرج بالكلام عن حد الفصاحة ، بل قد يرى

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨ .

(٣) الفقرة هى الجزء من الكلام الذى يقابل جزءاً آخر ، والفاصلة هى الكلمة الأخيرة من الفقرة .

الباقلانى أن يبخل على هـــذا النوع باسم السجع ، حيث يقول : « والسجع منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم وقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعراً . . . قيل : متى وقع أحد مصراعى البيت مخالفاً للآخر كان تخليطاً وخبطاً ، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعى الكلام المسجع وتفاوت كان خبطاً »(١) .

٥ - يرى الباقلانى أن السجع لا يأتى فى الشعر عند العرب ، بل قد يتفق فى الشعر كلام متزن على منهاج السجع وليس بسجع ، وذلك نحو قول البحترى :

تشكى الوجى ، والليل ملتبس الدجا   غريرية الأنساب مرت بقيعها(٢)

وقوله :

قريب المدى حتى يكون إلى الندى   عدو البنى ، حتى تكون معالى(٣)

ونظيره من القرآن قوله تعالى (ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم)(٤) وقوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)(٥) وقوله (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاده فى سبيـــله)(٦) ، وقوله

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٥٩

(٢) الوجى : أن يشتكى البعير باطن خفه ، الغرير : فحل من الإبل ، والإبل الغريرية : منسوبة إليه . ومكان مرت قفر لا نبات فيه ، والبقيع من الأرض : المكان المتسع فيه أروم شجر من ضروب شتى .

(٣) ذكر الباقلانى أن بعضهم يزعم أن هـــذا نوع من السجع يسمى السجع المداخل .

(٤) سورة النحل الآية ٢٧ .   (٥) سورة الإسراء الآية ١٦ .

(٦) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل[1]) وقوله (إنى وهن العظم منى)[2] .

ونحن بعد ذلك نعقب على هذه المعلومات فنقول : إنها معلومات بسيطة بالنسبة لقدر ثقافة هذا الرجل الذى عهدناه طلعة بحاثة ، يظهر ذلك جلياً عندما نقرأ باب السجع والازدواج عند أبى هلال العسكرى ، حيث نجده قد تحدث عنه حديثاً مطنباً ، بين فيه حدود السجع ، وأقسامه ، ومواطن الحسن والتكلف والعيب فيه ، كل ذلك فى دقة علمية متناهية ، وتمثيل مستقصى لجميع صنوفه وألوانه ، هذه واحدة .

وتأتى الأخرى عندنا فى حديثه عن تعريف السجع والحكم عليه بأنه محسن بديعى يستجلب فى الكلام من أجل تحسين اللفظ . فهذا من خطل القول ، وليس من خطئه فقط ، فالمعروف عند العلماء - كما قال الإمام عبد القاهر الجرجانى - « أنك لا تجد تجنيساً مقبولا ، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه : ماوقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوبا - بهذه المنزلة ، وفى هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعى رحمه الله تعالى ، وقد سئل عن النبيذ فقال : أجمع أهل الحرمين على تحريمه . . . ومثال ما جاء من السجع هذا المجىء ، وجرى هذا المجرى فى لين مقادته ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل (اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال . . . فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) سورة مريم الآية ٤ .

هذا النحو(١) بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ، وعبر به الفرق(٢) عليهما ، حتى إنه لو دام إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر »(٣) .

أما الثالثة فهى حديثه عن منهج مزعوم خطه للسجع ، ثم قسمه على أساسه إلى ممدوح ومذموم ، حيث أقول معقباً : إن هذا المنهج قد بنى على باطل وخطأ فى تحديد وتعريف السجع ، وقد أسلفنا الحديث عن هذه النقطة ، ومن هنا أرجح فى مدح السجع وذمه منهج الإمام عبد القاهر الذى يقول فيه : « لن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم »(٤) .

وأما الرابعة وهى رؤية الباقلانى أن السجع لا يأتى فى الشعر عند العرب فإنها مردودة بقول أبى هلال العسكرى : « قد أعجب العرب السجع حتى استعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوماً فى منظوم ، وسجعاً فى سجع ، وهذا مثل قول امرىء القيس :

---

(١) المشار إليه هو التجنيس والسجع .

(٢) الفرق : الخوف .

(٣) راجع أسرار البلاغة ١٠٣/١ — ٦ ١ ط . خفاجى .

(٤) المرجع السابق ١٠٦/١ ، ومعنى العبارة الأخيرة من الإمام : لو رام المتكلم ترك التجنيس والسجع حين يدعو المقام إليهما للحقه مثل ما يلحق المتكلف للسجع والجناس فى غير مقامهما .

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا[١]

وقــوله :

وأوتاده ماذية وعماده ردينية فيها أسنة قعضب[٢]

وقــوله :

فتورم القيام قطيع الـكلام يفتر عن ذى غروب خصر[٣]

وسمى أهل الصنعة هذا النوع من الشعر المرصع »[٤] .

وأما الخامسة فهى فى تنظيره الذى قسم فيه الآيات وفق مايحلو له لنفى السجع عن القرآن بينما اعترف به اعترافاً صريحاً خلال حديثه عن البديع عند التنظير لاتحاد الترصيع الذى هو نوع من السجع مع الجناس فى مثل قول ابن المعتز :

ألم تجزع على الربـع المحيـل وأطلال وآثار محـول

بالآيات الـكريمة[٥] (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون)[٦]، (ماأنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون)[٧] ، (وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد)[٨] ، (والطور ، وكتاب مسطور)[٩]،

---

(١) الشظى : عظم لاصق بالذراع فإذا زال قيل شظيت الدابة ، والشوى : اليدان والرجلان ، والشنج : التقبض ، والنسا : ـ بفتح النون ـ عرق فى الفخذ .

(٢) الماذية : الدروع البيض ، والردينية : الرماح ، وقعضيب : رجل كان فى الجاهلية يصنع الرماح .

(٣) الغروب ـ بضم الأول ـ حدة الأسنان وماؤها ، والخاصر: البارد .

(٤) الصناعتين ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٥) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ٩٦ .

(٦) سورة الأعراف الآية ٢٠١ ، ٢٠٢ :

(٧) سورة القلم الآية ٢ ، ٣ . (٨) سورة العاديات الآية ٧ ، ٨ .

(٩) سورة الطور الآية ١ ، ٢ .

(والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا)(١) .

هذا عن حديث المعلومات الهشة التى ذكرها الباقلانى عن السجع ، أما عن اضطرابه فى عرض مسائله فإنى أود أن أبدأ تعقيبى عليه حول هذا الموضوع بذكرى لقوله : « ومن البديع الترصيع ، وذلك على ألوان ، منها قول امرىء القيس :

مخش مجش مقبل مدبرها معا كتيس ظباء الحلب العدوان

ومن ذلك كثير من مقدمات أبى نواس :

يامنة امتنها السكر ماينقضى منى لها الشكر

وكقوله :

ديار نوار ماديار نوار كسونك شجواً هن منه عوار

.... وقد أولع الشعراء بنحو هذا ، ومنهم من بنى كلامه كله عليه كقول ابن الرومى :

أبدانهن وما لبسـ ن من الحرير معا حرير
أردانهن وما مسـ ن من العبير معا عبير

وكقوله :

فلراهب أن لا يريث مكانه ولراغب أن لا يريث نجاحه(٢)

حيث إن هذا القول من الباقلانى فضلا عن أنه يرد عليه حديث معلومة أن السجع لا يأتى فى الشعر عند العرب يظهر منه مدى الاضطراب فى عرض هذه المعلومة نفسها ، هذه واحدة .

---

(١) سورة النازعات الآية ٣ ، ٤ .

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٩٥ - ٩٧ .

أما الأخرى فهى أنه كيف يقر بأن السجع هو ما يتبع المعنى فيه اللفظ وأنه يستجلب لتحسين هـــذا اللفظ ، ثم يقر ويسلم بوجوده فى موضع أو موضعين من القرآن زاعماً أنه لا يقال له سجع لأنه غير مقصود إليه(١) .

ثالثا : بلاغة النظم البشرى المستعمل لدى العرب :

بنى الباقلانى حديثه عن هذه البلاغة على ماقرره فى دراستها ، وقد رصدنا له صدد الحديث عن التأليف الذى يدخل دائرة البلاغة الأقوال الآتية:

١ - على أصولنا ، قد تقرر لـكلامنا ونظمنا حد فى العادة لا سبيل إلى تجاوزه(٢) .

٢ - أردت أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة ، يقع فيها التنافس والتعارض ، والأطماع تتعلق بها ، والهمم تسمو إليها ، وهى إلف طباعنا ، وطوع مداركنا(٣) .

٣ - ابن العميد سلك تارة طريقة الجاحظ ، وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الأصل ، وبرع فى ذلك باقتداره ، وتقدم بحذقه ، ولـكنه لايخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره ، وإن كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الأطراف ، وتشذ النواحى(٤) .

٤ - إذا كان الـكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة فى النفوس ، التى لايمكن التوصل إليها بأنفسها وهى محتاجة إلى مايعبر عنها ، فما كان أقرب فى تصويرها ، وأظهر فى كشفها للفهم الغائب عنها ، وكان مع ذلك أحكم فى

(١) يجب الإشارة إلى أنه قد اشتهر بين المتأخرين عدم القول بالسجع فى القرآن تأدباً مع الله عز وجل ، ولعل هذا هو مقصود الباقلانى والرمانى أيضاً، راجع شروح التلخيص ٤/٤٥١ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٩٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٨ . (٤) المرجع السابق ١٢١ .

الإبانة عن المراد ، وأشد تحقيقا فى الإيضاح عن المطالب ، وأعجب فى وضعه وأرشق فى تصرفه ، وأبرع فى نظمه ـ كان أولى وأحق بأن يكون شريفا....
شبهوا الخط والنطق بالتصوير ، وقد أجمعوا أن أحذق المصورين : من صورلك الباكى المتضاحك ، والباكى الحزين ، والضاحك المتباكى ، والضاحك المستبشر ، وكما أنه يحتاج إلى لطف يد فى تصوير هذه الأمثلة ، فكذلك يحتاج إلى لطف فى اللسان والطبع فى تصوير مافى النفس للغير....
وفى جملة الكلام ما تقصر عبارته وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر معانيه وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقاً للآخر ... ثم ينقسم ما يقع وفقاً إلى أنه قد يفيدها على جملة ،وقد يفيدها على تفصيل ، وكل واحد منهما قد ينقسم إلى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعاً شريفا ، وغريبا لطيفا ، وقد يكون كل واحد منهما مستجلباً متكلفاً ، ومصنوعاً متعسفا ، وقد يكون كل واحد منهما حسناً رشيقاً ، وبهيجاً نضيراً ، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة فى واحد منهما ، وإنما يميز من يميز ، ويعرف من يعرف ،والحكم فى ذلك صعب شديد ، والفصل فيه شأو بعيد(١) .

٥ ـ قد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة ، ثم يتفق لأحدهما من اللطف فى الصنعة مالا يتفق للآخر .... وكذلك أهل نظم الكلام ـ يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم ، وكذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الإصابة مع العلم بكيفية الإصابة .... وإذا وجدت للشاعر بيتا أو قطعة أحسن من شعر امرىء القيس لم يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه ، لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد ، وبحسب ذلك البيت فى الشرف والحسن والبراعة ، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها،

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١١٩ (بتصرف) .

وإن كان كذلك علم أن هذا لا يرجع إلى قدره من العلم(١) .

٦ - لولا أن العقول تختلف ، والأفهام تتباين ، والمعارف تتفاضل - لم نحتج إلى ما تكلفنا ، ولكن الناس يتفاوتون فى المعرفة ، ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن ، أو يجتمعوا فى الهداية إلى هذا العلم لاتصاله بأسباب خفية ، وتعلقه بعلوم غامضة الغور ، عميقة القعر ، كثيرة المذاهب ، قليلة الطلاب ، ضعيفة الأصحاب ، وبحسب تأتى مواقعه تقع الأفهام دونه ، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه .... أنشدنى الحسن ابن عبد الله ، قال أنشدنا بعض مشايخنا للبحترى .

أهز بالشعر أقواماً ذوى سنة ... لو أنهم ضربوا بالسيف ماشعروا
علىَّ نحت القوافى من مقاطعها ... وما علىَّ لهم أن تفهم البقر(٢)

٧ - من قدر أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام لا يعرف من البلاغة إلا القليل ، ولا يفطن منها إلا لليسير ، ومن زعم أن البديع يقتصر على ماذكرناه من قبل عنهم فى الشعر فهو متطرف . بلى ، إن كانوا يقولون : إن هذه من وجوه البلاغة وغرر البديع وأصول اللطيف وإن مايجرى مجرى ذلك ويشاكله ملحق بالأصل ، ومردود على القاعدة - فهذا قريب(٣) .

ثم نقول : مجموع هذه الأقوال يؤكد أن الباقلانى يرى البلاغة البشرية - خواطر يغير بعضها على بعض .. هذه هى أصوله التى أكد عليها مرة بالطريقة النظرية (راجع القول الثانى)، ومرة بالطريقة العملية (راجع القول الثالث).

وفى القول الثالث إشارة إلى أن الأسلوب البليغ خاصية صاحبه ، وهذا القول - فيما أعتقد - هو القول الذى يتفق مع الفكر النقدى الحديث الذى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٥ . (٢) المرجع السابق ٢٩٩/٣٠٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

يرى أن الأسلوب هو الأديب ، وبذلك يكون الباقلانى ناقد سابق لعصره ، نؤكد هذا بقوله الصريح : « العالم إذا عرف طريقة شاعر فى قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعره - لم يشك أن ذاك من نسجه ، ولم يرتب فى أنها من نظمه ، كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة ، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره ، وكذلك أمر الخطب »(١) .

على أن القول الرابع من الباقلانى يشرح قضية البلاغة البشرية من حيث دوائر صناعتها المتسامية ، فالدائرة الأبلغ والأسمى هى الدائرة التى يبين فيها الكلام إبانة محكمة عن المعنى المراد مع رشاقة فى الصياغة اللفظية ، وبراعة فى النظم الأدبى ، والدوائر الأخرى تختلف درجاتها وتتفاوت بحسب اختلاف وتفاوت درجات الإبانة عن الأغراض القائمة فى النفوس ، ففى جملة الكلام - على حد تعبيره - ما تقصر عبارته ، وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر معانيه وتفضل العبارت . . . إلخ .

ولا يقصر الباقلانى قمة بلاغة النظم البشرى على عصر دون عصر (راجع القول الخامس) ، بل البراعة والقدرة الفائقة فى البلاغة هى فضل الله يؤتيه من يشاء - كما قال فى موضع آخر نقلناه من قبل(٢) - وبيان هذه البراعة ، والتفاوت فيها هى مهمة علماء البلاغة ونقاد الكلام الشاقة الذين يستطيعون وضع أيديهم على فروق الأداء البليغ لدى الأدباء ، يقول الباقلانى : « ومتى تقدم الإنسان فى هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ، ولم تشتبه عنده هذه الطرق : فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه ، وقدر كل كلام فى نفسه ، ويحله محله ، ويعتقد فيه ما هو عليه ، ويحكم فيه بما يستحق من الحكم »(٣).

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٢) راجع كلامه حول أسباب تفاوت العرب فى صناعة الشعر .

(٣) إعجاز القرآن الباقلانى ص ١٢٠ .

ولقد قدم الباقلانى نماذج مثالية نقدية على امتداد كتابه آملا أن يتفهمها ويحتذيها طلاب البلاغة والنقد العلمى الصحيح . حتى يستقيم الذوق النقدى العام ، وأعلن عن ذلك إعلاناً صريحاً فى القول السادس فيما نقلناه (راجع هذا القول) .

ولا يفوتنا بعد ذلك أن نشير إلى أن القول السابع إنما يمثل رفض الباقلانى لوجهة نظر الرمانى الذى يرى أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام هى : الإيجاز - التشبيه - الاستعارة - التلاؤم - الفواصل - التجانس - التصرف - المبالغة - التضمين - حسن البيان(١) ، كما يمثل رفض فكرة حصر صور البلاغة فيما أسماه العلماء قبله (البديع) .

المرحلة الثالثة : دراسة النظم القرآنى :

عالج الباقلانى دراسة النظم القرآنى من خلال الحديث عن ثلاثة أمور رئيسية هى :

١ - ماهية النظم القرآنى .

٢ - مخالفته لأى صورة من صور النظم الحادث .

٣ - وجوه إعجازه .

أولا : ماهيـة النظم القرآنى :

النظم القرآنى هو ما اصطلح أهل السنة على تسميته قرآنا(٢) ، وبنوا

---

(١) راجع هذه الأوجه وشرحها فى رسالة الرمانى (النكت فى إعجاز القرآن) ص ٧٦ - ١٠٩ .

(٢) فى كتاب الحق الدامغ ص ١٠٣ للشيخ أحمد بن حمد الخليلى - المفتى العام لسلطنة عمان والأباضي المذهب أن هذا اصطلاح الاشاعرة فقط ، وليس بشىء =

على دلالته ومعجزته نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . قال أحمد بن محمد ابن المنير الاسكندرى المالكى : « عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارى تعالى يطلق عليها قرآن ، ويطلق أيضا على أدلتها ، وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين : أحدهما : أنه إطلاق موهم ، والثانى : أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم ، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره ما لا يجوز اعتقاده »(١) .

وقد عرفه الباقلانى من واقع دلالته على نفسه بما يفيد أنه كلام الله المتلو المحفوظ المرسوم فى المصاحف ، الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وتلاه على من فى عصره ثلاثاً وعشرين سنة ، ونقل نقلا متواتراً عنه صلى الله عليه وسلم حتى صار العلم به ضرورة(٢) .

= لما ذكرناه أعلاه عن أهل المذهب أنفسهم ، ويبدو لى أن هذا اصطلاح أهل الدين جميعا ، لقول الجاحظ – من المعتزلة – (انظر الحيوان ١/٣٤٨) : « إذا كانت العرب يشتقون كلاماً من كلامهم وأسماء من أسمائهم ، واللغة عارية فى أيديهم ممن خلقهم ومكنهم وألهمهم وعلمهم ، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس ، فالذى أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة ، وكما أن له أن يبتدىء الأسماء ، فكذلك له أن يبتدئها مما أحب . . . قد سمى كتابه المنزل قرآناً . وهذا الاسم لم يكن حتى كان » .

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (على هامش كشاف الزمخشرى) ٢/٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٥ ، ١٦ ، هذا وتأتى هذه الضرورة – كما قال الباقلانى – من أنه صلى الله عليه وسلم لما جاء به مضاداً لأديان أهل عصره كلهم ، ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فى الكفر – وقف جميع أهل الخلاف على جملته ، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفصيله ، =

وهو فى اللغه أحد أمرين : إما أن يكون مصدراً لقرأ ، مرادفاً للقراءة ، ثم نقل من هذا المعنى المصدرى(١) ليكون علماً على كتاب الله عز وجل ، وإما أن يكون علماً مرتجلا(٢) من أول الأمر على هذا الكتاب العزيز المعجز ولكن دون همز فيه ، على ماروته كتب اللغة ، يقول ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة قرأ ـ : « القرآن : التنزيل العزيز ، قرأه يقرؤه (بفتح الراء) ويقرؤه (بضم الراء) ـ الأخيرة عن الزجاج ـ ، قرءا (بفتح القاف وسكون الراء) وقراءة (بكسر القاف وفتح الراء) وقرآنا (بضم القاف وسكون الراء) .... ومعنى القرآن معنى الجمع ، وسمى قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها وقوله تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه)(٣) أى جمعه وقراءته ، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)(٤) أى قراءته ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : فإذا بيناه لك بالقراءة فاعمل بما بيناه لك .... وروى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول : القرآن اسم ، ليس بمهموز ، ولم يؤخذ من قرأت ، ولكنه اسم لكتاب الله ، مثل التوراة والإنجيل ، ويهمز قرأت ، ولايهمز القرآن » .

هذا من حيث اللفظ ، أما من حيث المعنى فمعلوم أن القرآن كلام الله ، وكلام الله عند المتكلمين : صفة(٥) وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى ليست

= وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال ، وتعلمه الكبير والصغير ، إذ كان عمدة دينهم ، والمفروض تلاوته فى صلاتهم ، والواجب استعماله فى أحكامهم .

(١) من باب إطلاق المصدر على مفعوله .

(٢) يرى بعض اللغويين أيضا أنه وصف من القرء (بفتح القاف وسكون الراء) بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن ، أو من قرنت الشىء بالشىء ، وليس لهذا كله باب وجيه ـ راجع لسان العرب ، مادة قرأ .

(٣) سورة القيامة آية ١٧ . (٤) سورة القيامة آية ١٧ .

(٥) تطلق الصفة على معنيين : الاول : ماليس بذات ، وجودياً كان كالعلم أم عدمياً كالقدم ، فإن مفهوم القدم : عدم الحدوث ، والمعنى الثانى : المعنى الوجودى القائم بالموصوف كالقدرة ، ويجب لله تفصيلا عشرون صفة ، تنقسم إلى أربعة =

بحرف ولاصوت ، منزهة عن التقديم والتأخير والترتيب ، تدل على جميع الواجبات والمستحيلات والجائزات ، لأنه عن طريقها تكون الدلالة على أن الله واحد قادر موصوف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وعن طريقها تكون الدلالة على الأمر بالطاعات ، وعلى النهى عن المحرمات ، وعلى الوعد بالثواب لمن أطاع ، وعلى الوعيد بالعقاب لمن عصى ، وعلى الأخبار بجميع ما كان وما يكون ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن هناك بعثاً وحساباً وجنة وناراً وثواباً وعقاباً ، حتى لو أزيل عنا الحجاب وأطلعنا الله على هذه الصفة لفهمنا منها كل شيء[1] .

وإثبات صفة الكلام لله سبحانه مما يختص به أهل السنة ، لاسيما الأشاعرة أصحاب الباقلانى ، هادفين إلى نفى صفة الخرس عنه سبحانه ؛ لأنه عز وجل عاب من يعبد إلها لا يتكلم فقال (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا)[2] ولأن الخرس صفة نقص ، والنقص على الله محال ، أما المعتزلة فقد ذهبت إلى عدم ضرورة إثبات هذه الصفة اكتفاء منهم فى نفى الخرس عنه سبحانه بصفة القدرة ، مراعين أن الصفات الذاتية - كالكلام - لا يراد بها إلا نفى

= أقسام: نفسية ، وسلبية ، ومعانى ، ومعنوية . والصفة النفسية من الصفات العشرين هى الوجود ، أما الصفات السلبية فهى خمس : القدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس والوحدانية ، ومعنى أنها سلبية : أن مفهومها سلب ضدها عن موصوفها ، فمفهوم القدم مثلا عدم الحدوث ، وصفة المعنى : هى المعنى الوجودى القائم بالذات ، وصفات المعانى سبع : القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام النفسى ، والصفة المعنوية هى : الحال الثابتة للذات ، معللة تلك الحال بعلة ، بمعنى أن ثبوت هذه الصفة يكون تابعاً لثبوت صفة أخرى لذلك الموصوف ، وهذه الصفات سبع لأنها تتبع صفات المعانى ، ولذلك نقول فيها : كون الله قادراً ، وكونه مريداً . . . إلخ - راجع توضيح العقيدة المفيد فى علم التوحيد ١/٢٦ ، ٢٧ .

(١) المرجع السابق ٢/١٩ . (٢) سورة الأعراف آية ١٤٨ .

أضدادها ، وليس الكلام ضداً للخرس حتى ينتفى الخرس بإثباته ، وإنما ضده السكوت(١) .

ولن نطيل فى حديث صفة الكلام أكثر من هذا فصناعة الكلام ليست صناعتنا ، كما أن فترة حكم الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ) قد أنهت محنة المسلمين فى الخلاف حول القضية التى نتجت عن الخوض فى تفاصيل صفة الكلام الإلهى وكونه مخلوقا أو غير مخلوق(٢) قبل ولادة الباقلانى بنحو قرن من الزمان ، لكننا ومن خلال استعراضنا لحديث الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن ، وتذكرنا لتعريفه الذى استخلصناه . نرى أنه يشارك الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية فى إطلاق القرآن على الكلام اللفظى (٣)، لكن باعتبار خاص ذكره أثناء إجابته على سؤال أحد محاوريه : وإن قال قائل :

---

(١) راجع الحق الدامغ ص ١٠٠ .

(٢) وجهة نظر الإمام أحمد بن حنبل كما جاء فى بعض مطناراته حول هذا الموضوع أن القرآن من علم الله ، وعلم الله غير مخلوق - راجع مقالات الكوثرى ص ٢٧ ، هذا ، وقد جاء فى مقالات الإمام الكوثرى تحت عنوان (بدعة الصوتية حول القرآن) مانصه : « الواقع أن فى القرآن فى اللوح وفى لسان جبريل عليه السلام ، وفى لسان النبى صلى الله عليه وسلم وألسنة سائر التالين وقلوبهم وألواحهم مخلوق حادث محدث ضرورة ، ومن ينكر ذلك يكون مسفسطا ساقطاً من مرتبة الخطاب ، وإنما القديم هو المعنى القائم بالله سبحانه ، بمعنى الكلام النفسى فى علم الله جل شأنه فى نظر أحمد بن حنبل وابن حزم » « أو بمعنى صفة الكلام القائمة به سبحانه ، بالاعتبار الثانى تكون دلالة عقلية ، كما لا يخفى » . على أن العلامة الكوثرى قد نقل أن العلامة السعد ذكر فى شرح المقاصد أن قولهم : القرآن مكتوب فى مصاحفنا ، محفوظ فى قلوبنا ، مقروء بألسنتنا ، مسموع بآذاننا - من وصف المدلول باسم الدال مجازاً - راجع مقالات الكوثرى ص ٢٧ .

(٣) عنى الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن على الكلام اللفظى لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ ، وعنى علماء العربية وشاركهم الباقلانى بأمر الإعجاز فلا جرم أن كانت وجهتهم الألفاظ .

بينوا لنا ما الذى وقع إليه ؟ أهو الحروف المنظومة ؟ أو الكلام القائم بالذات ؟ أو غير ذلك ؟ قيل الذى تحداهم به : أن يأتوا بمثل الحروف التى هى نظم القرآن ، منظومة كنظمها ، متتابعة كتتابعها ، مطردة كاطرادها ، ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له . وإن كان كذلك فالتحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة ،التى هى عبارة عن كلام الله تعالى فى نظمها وتأليفها وهى حكاية لكلامه ،ودلالات عليه وأمارات له(١).

هذا ، وقد احتشد الباقلانى لإثبات أن الذى بين دفتى المصحف هو النظم القرآنى ، الذى نزل به جبريل ، وقرأه صلى الله عليه وسلم على الناس ثلاثاً وعشرين سنة ، وتم نقله عنه بالتواتر ، فذكر أن الله قد ضمن حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووعده الحق ، وعد من وسائل هذا الحفظ ذلك العدد الذين أخذوا القرآن فى الأمصار وفى البوادى ، وفى الأسفار والحضر ، وضبطوه حفظا من بين صغير وكبير ، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف ، فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها ، وصحة أدائها ، ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه ، ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ، ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ، ومن الملحدين من يحصله لينظر فى عجيب شأنه(٢) .

هذا ، وقد فرق الباقلانى النظم القرآنى - أو كلام الله اللفظى الذى هو حكاية لكلامه النفسى القديم القائم بذاته سبحانه على حد قوله - عن نظم الكتب الإلهية الأخرى بأنه نظم معجز(٣) ، أما هذه الكتب فإن نظامها ليس معجزاً وإن كان ما تتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزاً(٤) ، يدرك

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٦٠ ، ٤٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٨ - ٢٠ بتصرف .

(٣) معنى إعجازه أن العباد لا يقدرون عليه - واجع عبارة الباقلانى ص٢٨٨ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤ هذا وسيأتى أن يثبت الباقلانى مشاركة القرآن لهذه الكتب فى هذه الخصيصة من الإعجاز .

هذا الإعجاز ويعرفه ـ ضرورة ـ البليغ الذى قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فيها(١)، ومن هنا ذكر الباقلانى أن رسول الله صلى الله عليه قد عرف هذا الإعجاز وأدركه من أول لقاء التقى فيه بجبريل عليه السلام نازلا بهذا النظم الإلهى الكريم(٢)، كما عرف هذا الإعجاز وأدركه من كان فى عصره صلى الله عليه وسلم من الفصحاء(٣)، أما من حاد منهم عن معرفة إعجازه فقد ذكر الباقلانى أنهم هم الذين اختلفت أحوالهم، فكانوا بين جاهل وجاحد، وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات، وحائر عن النظر فى الدلالات، وناقص فى باب البحث، ومختل الآلة فى وجه الفحص، ومستهين بأمر الأديان، وغاو تحت حبالة الشيطان، ومقذوف بخذلان الرحمن، وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة، ودرجات الحرمان مختلفة(٤).

على أن الباقلانى قد أجاب عن سؤال المعترضين عليه بإثبات صفة الإعجاز لهذا النظم قائلين: «لو كان معجزاً لم يختلف أهل الملة فى وجه إعجازه» فقال: «قد يثبت الشىء دليلا وإن اختلفوا فى وجه دلالة البرهان كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق»(٥).

وكما أن الاختلاف حول الإعجاز لا ينفيه عند الباقلانى كذلك فإن الاختلاف حول ما نزل أولا أو آخراً من هذه النظم لا ينفى الإعجاز عنه،

---

(١) انظر إعجاز القرآن ص ٢٥٩.
(٢) المرجع السابق ص ١٣، ٦٢.
(٣) المرجع السابق ص ٣٠٣.
(٤) المرجع السابق ص ٣٠٤.
(٥) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٩٤.

لأن هذا النظم آيات وسوراً مرتبة ترتيباً توقيفياً بإرشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وحى الله العلى الأعلى إليه(١).

ثانياً : مخالفة النظم القرآنى لأى صورة من صور النظم الحادث :

اقتضى هذا الحديث من الباقلانى تحديد صور النظم الحادث ثم بيان وجه المخالفة بين النظم القرآنى وهذه الصور ، وقد تحدث الباقلانى عن صور النظم الحادث فى اتجاهين: اتجاه اعتمد فيه على الاستقراء والتتبع والاجتهاد الشخصى ؛ وذلك هو اتجاه تحديد صور نظم الكلام العربى الذى اختاره ليكون النظم المثالى الفصيح للغات البشر ، وقد ذكرنا له من قبل نصين يتعلقان بهذا الاتجاه ، واتجاه اعتمد فيه على القياس والتنظير ، وذلك هو اتجاه بيان صور نظم الجن والملائكة ، ونلاحظ أنه ركز حديثه فى هذا الاتجاه على نظم الأمة الأولى (الجن)، بينما سكت عن نظم الأمة الثانية (الملائكة) ، وإن كان قد ضرب عليهما بنتيجة واحدة هى دنو درجتهما وقصورها عن اللحاق بصور النظم البشرى المستعمل لدى فصحاء العرب .

وننقل الآن نص حديثه القياسى عن نظم أمة الجن الذى انتهى فيه إلى النتيجة التى قلناها : « إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن ، وما يروون لهم من الشعر ، ويحكون عنهم من الكلام ، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم ، منقول عنهم ، والقدر الذى نقلوه من ذلك قد تأملناه ، فهو فى الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس ، ولعله يقصر عنها(٢) » .

---

(١) ذكر الباقلانى (ص ١٥ إعجاز القرآن) أن هذا النظم المعجز يحل من وجه - هو وجه الحكاية كما صرح من قبل - محل سماع الكلام من القديم سبحانه ، لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه فى الحقيقة كلامه .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٩ .

هذا عن بيان صور النظم الحادث ، أما عن مخالفة النظم القرآني لصور هذا النظم فقد سلك الباقلاني في هذا السبيل مسالك شتى : منها : الكلام الخبري الابتدائي مثل قوله في تقديم النص الأول الذي ذكرناه في حديث أجناس النظم البشري المستعمل لدى العرب[1] : « نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد »[2] .

ومنها الكلام الجدلي الذي أحاط به عبارة النص الثاني في حديث حصر أجناس النظم البشري المستعمل لدى العرب ، ونصه كما يلي : « إن قال قائل : « القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ، ففيه من جنس خطبهم، ورسائلهم ، وشعرهم ، وسجعهم ، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى ، ولكنه أبدع فيه ضرباً من الإبداع ، لبراعته وفصاحته . قيل : قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم ونثر ، وكلام مقفى غير موزون ، وكلام موزون غير مقفى ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب ، والسجع ، ونظم مقفى موزون له روى .

ومن هذه الأقسام ماهو سجية الأغلب من الناس ، فتناوله أقرب ، وسلوكه لا يتعذر ، ومنه ماهو أصعب تناولا ، كالموزون عند بعضهم ، والشعر عند الآخرين . وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن تقع لهم بأحد أمرين : إما بتعمل وتكلف وتعلم وتصنع ، أو باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة إليه ، ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ، ويعرض على ألسنتهم ، وتجيش به خواطرهم ، ولا ينصرف عنه الكل مع شدة الدواعي إليه ، ولو كان طريقة

---

(١) راجع النص ص ٢٣ من هذا البحث .

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٥ .

طريقة التعلم لتصنعوه ولعلموه، والمهلة لهم فسيحة، والأمد واسع »(١) .

ومنها الـكلام البرهانى المقارن الذى يثبت فيه سمو درجة النظم القرآنى وارتفاعه عن أن يلحق به نظم آخر ، وذلك هو حديث التفوق البلاغى المعجز الذى سنعرض له بعد قليل .

وقبل أن نبدأ حديث أصل قضية المخالفة التى اتخذها الباقلانى مذهباً له نرى أن نستوقفه حول نظم الجن والملائـكة لنقول : إنه لم يثبت بالدليل الملموس الذى لا يقبل الشك وجود نظم لـكلا هاتين الأمتين ، وما هو موجود فى القرآن الـكريم إنما هو حـكاية من الله عز وجل لمنطق هاتين الأمتين ، ثم إن من حقنا أن نسأله لمـــاذا لم يتحدث عن منطق الطير والحيوانات والحشرات وغيرها اعتماداً على القرآن كما فعل هنا مع أن فى القرآن الـكريم حكايات عن كلام النمل ، وكلام الهدهد . . ؟

لقد رأى القاضى عبد الجبار ـ وهو محق فى ذلك ـ أنه لا داعى لإثارة هذه المسألة أصلا ، لأن فصاحة القرآن وإعجازه تتوقف على خرق العادات المعروفة ؛ أما العادات غير المعروفة أو التى لا يمـكن التحقق منها فهى غير معتبرة فى الإعجاز ، يقول القاضى عبد الجبار ـ مجادلا ـ فى الحديث عن نظم أمة الجن « إن قال ـ قائل ـ أفليس النبى صلى الله عليه وسلم قد تحدى الجن كما تحدى الإنس ؟ فيجب أن لا نعلم كون القرآن معجزاً إلا بعد أن نعلم تعذر المعارضة على الجن ؟ قيل له : قد بينا أنا نعتبر فى كون القرآن ناقضا للعادات، العادة المعروفة دون ما لا نعرفه من العادات ، فإذا لم يكن لنافى العقل طريق إلى معرفة الجن أصلا لأنهم لا يشاهدون ولا تعرف أحوالهم بغير المشاهدة فيجب أن لا تعتبر أحوالهم وعاداتهم ، لأن اعتبار العادة فرع على معرفة

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

أهل العادات ، فإذا صح ذلك وعلمنا أنه لا معتبر بذلك فقد كفانا فى معرفة كون القرآن معجزاً بخروجه عن عادة من تعرف عادته »(١) .

ويقول عن نظم الملائكة : « ويبطل بهذه الطريقة قول من قال : إنما يصح كون القرآن معجزاً إذا ثبت أن الملائكة عجزت عن المعارضة ، وتعذر ذلك عليها ، لأنا قد بينا : أن عادتهم غير معتبرة ، فتعذرها أو تمكنهم منها لا يختلف فى أنه لا يقدح فى حال القرآن(٢) » .

ونأتى الآن إلى مناقشة أصل قضية مخالفة النظم القرآنى للنظم العربى المستعمل فنقول : إن هذه القضية بدأت مع نزول القرآن الكريم - كما يقول الشيخ محمود محمد شاكر - « ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأبى هو وأمى - حين فاجأه الوحى فى غار حراء ، وقال له (اقرأ) فقال : (ما أنا بقارىء) ، ثم لم يزل حتى قرأ (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم(٣)) رجع بها وهو يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة - رضى الله عنها - فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وذلك لأنه قد أتاه أمر لا قبل له به ، وسمع مقالا لا عهد له بمثله ، وكان رجلا من العرب يعرف من كلامها ما تعرف ، وينكر منه ما تنكر : كان هـذا الروع الذى أخذه - بأبى هو وأمى - أول إحساس فى تاريخ البشر بمباينة هذا الذى سمع للذى كان يسمع من كلام قومه ، وللذى كان يعرف من كلام نفسه(٤) » .

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن ص ٢٩٧) .

(٢) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن ص ٢٩٨) .

(٣) سورة العلق الآيات ١ - ٥ .

(٤) مقدمة الشيخ محمود شاكر لكتاب الظاهرة القرآنية ص ٢٧ .

وأحسب أن فكرة مخالفة النظم القرآنى لصور النظام العربى قد اختمرت فى عقل الباقلانى بعد ما كتبه شيخ رجال السيرة النبوية محمد بن إسحاق (ت ١٥٢ هـ) وورثه عنه ابن هشام (ت ٢١٨ هـ)، ولنترك الآن المجال لهذا الأخير يعرض علينا فى كتابه السيرة النبوية ماجرى فى اجتماع فصحاء قريش وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة للتشاور فى أمر القرآن، ونحس من خلاله روح الباقلانى وهو يستعرض صور نظم الكلام العربى من شعر وسجع، يقول ابن هشام: «اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضا، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: والله ماهو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة(١) الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: وما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ماهو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول: يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق(٢)، وإن فرعه لجناه — قال ابن هشام: ويقال: لغدق(٣)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه

---

(١) الزمزمة: الكلام الخفى الذى لايسمع.

(٢) العذق (بفتح العين والذال): النخلة، يشبهه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى.

(٣) الغدق (بفتح الغين والدال غير المعجمة): الماء الكثير، ومنه يقال: =

باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك(١) .

وأزعم بعد ذلك أن فكرة مخالفة النظم القرآني لصور النظم العربي قد تأكدت عند الباقلاني لما وجد أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٢٩٦هـ) قد ذكرها في مجال الحديث عن وجوه إعجاز القرآن تحت مسمى جديد هو نقض العادة ـ أي عادة كلام العرب ـ حيث قال : « وأما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة : منها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة »(٢) .

لكنني أقول بعد هذا كله : إن للباقلاني جهداً ضخماً في إلباس هذه الفكرة الدينية ثوب الثقافة العربية البلاغية ، حيث استطاع الكشف عن الروح الإلهية للقرآن التي يزعم علماء ثقافتنا الحديثة عندما يقولون بها الآن أنهم يكشفون جديدا لأول مرة ، وهم في واقع الأمر يصبغون ما قاله الباقلاني صباغة عصرية ، ولنكتف في هذا المقام بذكر قول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : وفي القرآن مظهر غريب لإعجازه المستمر لايحتاج في تعريفه إلى رواية ولا إعنات ، وما هو إلا أن يراه من اعترض شيئا

= غيدق الرجل إذا كثر بصاقه، وكان أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الغيدق لكثرة عطائه .

(١) انظر ١/٢٧٠ ، ٢٧١ سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ط ٢ مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٥ .

(٢) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم (رسالة الرماني : النكت ص ١١١) .

من أساليب الناس حتى يقع فى نفسه معنى إعجازه ، لأنه أمر يغلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه ، كالصوت المطرب البالغ فى التطريب ، لا يحتاج امرؤ فى معرفته وتمييزه إلى أكثر من سماعه ، ذلك هو وجه تركيبه ، أو هو أسلوبه ، فإنه مباين بنفسه لكل ماعرف من أساليب البلغاء فى ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم ، وعلى أنه يؤاتى بعضه بعضا ، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى فى النظم والطريقة ، على اختلاف المعانى وتباين الأغراض ، سواء فى ذلك ما كان مبتدأ به من معانيه وأخباره وما كان متكرراً فيه ، فكأنه قطعة واحدة ، على خلاف ما أنت واجده فى كلام كل بليغ من التفاوت باختلاف الوجوه التى يصرفه إليها ، والعلو فى موضع والنزول فى موضع ، ثم ما يكون من فترة الطبع ومسحة النفس فى جهة يبعث عليها الملل ، أو جهة استؤنفت لها النشاط ، ثم مالابد منه من الإجادة فى بعض الأغراض والتقصير فى بعضها ، مما تختلف البلغاء فى علمه والإحاطة به ، أو التأتى له والانطباع عليه ، وهذا كله معروف متظاهر فى الناس لا يمترى فيه أحد ، وليس من شىء فى أسلوب القرآن يغض من موضعه ، أو يذهب بطريقته ، أو يدخله فى شبه من كلام الناس ، أو يرده إلى طبع معروف من طبائع البلغاء ، وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك ، ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلا على إعجازه ، وعلى أنه ليس من كلام إنسان ، بيد أننا لم نر أحداً كشف عن سر هذا المعنى ، ولا ألم بحقيقته ، ولا أوضح الوجه الذى من أجله خالف أسلوب القرآن كل ما عرف من أساليب الناس ولم يشبه واحداً منها ، ونحن نوجز القول فيه لأنه أصل من أصول الكلام فى أساليب الإنشاء .

فقد ثبت لنا من درس أساليب البلغاء ، وترداد النظر فى أسباب اختلافها وتصفح وجوه هذا الاختلاف ، وتعرف العلل التى أثرت فى مباينة بعضها لبعض ، من طبيعة البليغ وطبيعة عصره ـ أن تركيب الكلام يتبع

تركيب المزاج الإنسانى ... من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعاً إنسانياً ألبتة ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد ، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد فى طريقته ونسقه ومعانيه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)(١)، ولقد أحس العرب بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه »(٢) .

وأجد الآن من نافلة القول أن أبين أن الباقلانى قد وصل إلى تصوره المجتهد الذى سبق أن عرضناه فى حصر صور النظم البشرى المستعمل تحت تأثير رجوعه بفكرة مخالفة النظم القرآنى لصور النظم الحادث إلى أصلها الدينى الذى أوضحناه الآن ، بجانب بعض المبررات التى التقطها من حقل الثقافة العربية ، والتى أوضحناها قبلا فى حينها(٣) .

بقى أن نعتذر عن عبارة الباقلانى (مخالفة النظم القرآنى لصور النظم العربى الفصيح) والتى نعتقد أنها زلة قلم أو سقطة قدم ، ونقول : إن ماقدمه من إيضاح وشرح لها على امتداد كتابه يفيد أن وجه المخالفة بين النظمين إنما يكمن فى طريقة الفصاحة والبلاغة لا فى السبق والابتكار والخروج عن المألوف من الصور النظمية العربية ، وإلا فنحن مع القاضى عبد الجبار الذى أثار هذه المسألة بطريقته الجدلية القوية ، وكأنه يرد على الباقلانى مقولته ، وكان الأولى أن يترفق به ويعتذر عنه « فإن قال : هلا صح التحدى بالقرآن من حيث اختص بنظم لم تجر العادة بمثله لأن الذى كان يعتاده القوم الشعر

---

(١) سورة النساء آية ٨٢ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٠١ ، ٢٠٣ بتصرف .

(٣) راجع : ثانيا فى حديث دراستنا للنظم البشرى المستعمل لدى العرب عند الباقلانى ص ٢٥ ، ٢٦ من هذا البحث .

وما يجري مجراه ، والخطب وماشاكلها من الكلام المنثور ، فجاءهم بطريقة في البيان خارجة عما اعتادوه ؟ قيـــل له : إنما الغرض أن نبين وجها يصح التحدى عليه بالقرآن ، والتقريع بالعجز عنه ، لكننا نعلم أن الأمر بخلاف ماذكرته ، لأن من سبق إلى الشعر أولا لا يجب أن يكون الذى أتى به داخلا فى الإعجاز ، وإن كان قد اختص بنظم غير معتاد ، لما كان المتعالم من حال الغير أنه يساويه فى ذلك ، فلم يكن بالسبق اعتبار ، دون أن ينضاف إليـــه ماذكرناه من تعذر مثله على غيره وخروجه من المعتاد - يعنى فى الفصاحة والبلاغة .

« ولو كان السبق إلى الشعر من باب الإعجاز لكان كل وزن منه وكل بحر يقتضى الاعجاز ، ولصح ادعاء الإعجاز فى كل زمان بابتداع وزن مخالف لما جرت به العادة ، فإذا بطل ذلك فكيف يصح اعتبار السبق فى هـــذا الباب »(١) - يعنى باب الإعجاز .

ثالثا : وجوه إعجاز القرآن الكريم :

تعرض الباقلانى فى الحديث عن هذه النطقة لما تعرض له السابقون عليه سواء فى ذلك المعتزلة من أمثال الجاحظ والرمانى ، أو أهل السنة من أمثال أصحابه الأشاعرة ، وإذا كانت العادة المتبعة فى الصراع المذهبى بين المعتزلة وأهل السنة أن يهون كل منهما من فكر الآخر أو يخطئه - إن لم يرقه فيأخذه لنفسه - فإن الباقلانى السنى المذهب حين عرض لفكر الجاحظ هون منه فقال : « وقد صنف الجاحظ (فى نظم القرآن) كتابا ، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هـــذا المعنى »(٢) وحين

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن) ص ٢١٦ ، ٢١٧ بتصرف .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦ .

عرض لفكر الرمانى أتى به إما فى سياق موضوعاته على أنه من بنات أفكاره وإما منسوباً لنكرة من الناس محكوم عليه بالجهل وقلة المعرفة ، ونستشهد للأمر الأول بما قدمناه من قوله عن النظم القرآنى إنه خارج عن صور النظم العربى . فقد ذكرنا من قبل أن هذا الحديث هو حديث الرمانى عن نقض القرآن لعادات النظم العربى ، أما عن نسبته أفكار الرمانى إلى شخصية نكرة جاهلة فستشهد بقوله عن حديث البلاغة الذى حصره الرمانى فى عشرة أوجه : « من قدر أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام لا يعرف من البلاغة إلا القليل ، ولا يفطن منها إلا لليسير »(١)

هذا ، ويجب أن نذكر أن مآل وجوه الإعجاز حتى عصر الباقلانى قد انتهت عند المعتزلة ـ الرمانى ـ إلى سبعة وجوه هى : ترك المعارضه مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة »(٢) ، بينما رأى أهل السنة ـ الأشاعرة ـ أن هذه الوجوه ثلاثة : الوجه الأول : أن القرآن يتضمن الأخبار عن الغيوب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، والوجه الثانى : أنه كان معلوماً من حال النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، والوجه الثالث : أن القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغه إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه .

وقد عرض الباقلانى لمعظم هذه الوجوه فى إيجاز ـ كما قال فى خطته التأليفية ـ ولم يبسط القول إلا فيما رأى أن غيره قصر فيه ، وسنعرض لكلا حديثيه الموجز والمفصل فيما يلى سائلين الله عز وجل التوفيق والسداد .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم (رسالة الرمانى : النكت ص ١٠٩).

١ — إشاراته الموجزة :

(أ) ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة :

بدأ الباقلانى فى الحديث عن هذا الوجه من الإعجاز كأنه عالم من علماء القرن الخامس عشر الهجرى إذ اتكأ فيه على الناحيتين الاجتماعية والنفسية، فدرس العرب من كلا هذين الجانبين ، فبين أنهم من الناحية الاجتماعية ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا لأتفه الأسباب ، ولهم فى ذلك مواقف معروفة ، وأخبار مشهورة ، وآثار منقولة مذكورة(١) ، كما أنهم من الناحية النفسية لايقبلون أن يتفوق عليهم أحد - خصوصاً فى ملكة الفصاحة والبيان ، وعلى حد تعبيره ، كانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ، ويتبجحون بذلك ، ويتفاخرون بينهم(٢) ، ثم خلص بعد ذلك إلى النتيجة التى يريدها قائلا : « فلن يجوز - والحال هذه - أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها تحداهم أو لم يتحدهم إليها »(٣) .

« ويمكن أن يقال : إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما أتى به ، لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة ، وهم على ماهم عليه من الذرابة والسلاقة(٤) والمعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ، وأنهم يضعفون عن مجاراته ، ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتى به ، ويقرعهم ويؤنبهم عليه ، ويدرك آماله فيهم ، وينجح ماسعى له فى تركهم المعارضة »(٥) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٣ .
(٢) الموضع السابق .
(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤ .
(٤) سلقه بلسانه . أسمعه ما يكره .
(٥) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٢، ٢٣ .

هذا ، وقد أجاب الباقلانى عما يمكن أن يعترض به عليه ، وهو الآية الكريمة (لو نشاء لقلنا مثل هذا)(١) فقال « وأما قوله تعالى حكاية عنهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا) فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم ، وقد يمكن أن يكون قاله منهم أهل الضعف فى هذه الصناعة دون المتقدمين فيها ، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم ، ولذلك أورده الله مورد تقريعهم ، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزن الوعد إلى الانجاز والضمان إلى الوفاء ، فلما لم يفعلوا ذلك — مع استمرار التحدى وتطاول زمان الفسحة فى إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه — علم عجزهم ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط .

« ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول فى الحشرات والهوام والحيات ، وفى وصف الأزمة والأنساع(٢) ، والأمور التى لا يؤبه لها ، ولا يحتاج إليها ، ويتنافسون فى ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح ، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته فى هذه المعانى الفسيحة ، والعبارات الفصيحة ، مع تضمن المعارضة لتكذيبه ، والذب عن أديانهم القديمة ، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم ، وتضليله إياهم ، والتخلص من منازعته ، ثم من محاربته ومقارعته ، ثم لا يفعلون شيئا من ذلك ، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل ، ويعللونها بالأباطيل ، هذا محال »(٣) .

---

(١) سورة الأنفال آية ٣١ .

(٢) أزمت الحبل والعنان والخيط وغيره آزمه (بكسر الزاى وضم الميم) أزما: أحكمت فتله وضفره (بالراء والزاى ، والراء : أعرف) ، والأزم : ضرب من الضفر — راجع لسان العرب (مادة أزم) ، والأنساع : الحبال ، واحدها نسع (بكسر النون وسكون السين) .

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤٣ ، ٤٤ .

ولم ينس الباقلانى أنه يمكن أن يعترض عليه أيضا بما أشيع عن معارضة ابن المقفع ومسيلمة الكذاب للقرآن فقال راداً لذلك : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى « الدرة » و« التليمية » ، وهما كتابان : أحدهما يتضمن حكماً منقولة ، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شىء بديع من لفظ ولا معنى ، والآخر فى شىء من الديانات ، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل ، وكتابه الذى بيناه فى الحكم، منسوخ من كتاب بزر جمهر فى الحكمة ، فأى صنع له فى ذلك ؟ وأى فضيلة حازها فيما جاء به ؟ .

« وبعد ، فليس يوجد له كتاب يدعى مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع ، واستحيا لنفسه من إظهاره ، فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد ، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده ، ويتبين له أمره ، وينكشف له عجزه ، ولو كان بقى على اشتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته ، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته »(١) .

أما كلام مسيلمة الكذاب(٢) فقد قال الباقلانى عنه إنه أخس من أن يشتغل به ، وأسخف من أن يفكر فيه ، وأكد على ذلك بنقل شىء منه كقوله « ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين . لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ٣٢ .

(٢) هو أبو ثمامة . مسيلمة بن حبيب الحنفى ، من أهل اليمامة . ادعى النبوة بمكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعاً ، عارض فيها بزعمه القرآن ، وكان قد قوى أمره فى اليمامة ، وظهر جداً بعد وفاة الرسول ، فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد فى جيش لمقاومته ، فكان له النصر على بنى حنيفة فى يوم اليمامة . وقتل مسيلمة وكثير من أتباعه ، واستشهد من المسلمين ألف ومائتا رجل .

ولكن قريشا قوم يعتدون »(١)، ثم قال: « وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارىء، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل وميدان الجهل واسع! »(٢).

وأقول الآن فى تحليل موقف الباقلانى إنه يرى أن أهم خصائص المعارضة غير موجودة فى هذا الذى أشاعوه وهو الجانب الفكرى الذى هو خصيصة النظم القرآنى السامى، أما احتذاء القالب واتباع الشكل أو الموسيقى اللفظية وحدها فليس من المعارضة فى شىء، ولهذا كان الرأى عنـــده بالنسبة لابن المقفع أنه لا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده ويتبين له أمره، وينكشف له عجزه، ولو كان بقى على اشتباه الحال عليه، لم يخف علينا موضع غفلته، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته، أما بالنسبة لمسيلمة فإنه - كما قال - أخس من أن يشتغل به، وأسخف من أن يفكر فيه، ذلك أنه أتى بما أفصح عن غباته وذهاب عقله، حيث جنح - كما يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى - إلى أقرب ما فى الطباع الإنسانية، وأقوى ما فى أوهام العرب من طرق السجع، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها، وإن الرجل على ذلك لفصيح(٣)، ولقد أكد الباقلانى حكمه على مسيلمة بما روى عن أبى بكر الصديق من أنه لما عرف ما يقوله مسيلمة قال الذين قدموا عليه من بنى حنيفة: سبحان الله! ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج عن إل، فأين كان يذهب بكم!؟(٤).

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٥٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٦.

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٠٤.

(٤) قال الباقلانى فى تفسير مقالة أبى بكر: معنى قوله (لم يخرج من عن إل): أى ربوبية - راجع إعجاز القرآن له ص ١٥٨، هـــذا، ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد أخذ فكرة الإمام الباقلانى عن المعارضة القرآنية =

(ب) تحدى القرآن للكافة :

ذكرنا من قبل أن الباقلانى قد بين أن ماوقع إليه التحدى فى القرآن هو الإتيان بمثل الحروف القرآنية المنظومة التى هى عبارة عن كلام الله تعالى فى نظمها وتأليفها ، وهى حكاية لكلامه ، ودلالات عليه ، وأمارات له[١] ، ونذكر له الآن تعليل هذا التحدى بقوله : « وإنما احتيج التحدى لإقامة الحجة وإظهار وجه البرهان على الكافة ، لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه ، ولا تظهر على مدع لها إلا وهى معلومة أنها من عند الله ، فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدى وجب فيها التحدى ، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل ، وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة[٢] » .

ثم نذكر له أيضا ربط حديث التحدى بحديث المعارضة من خلال قوله : « والذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن : أنه تحداهم إليه حتى طال التحدى ، وجعله دلالة على صدقه ونبوته ، وضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبى ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه

= وصاغها بأسلوبه الرائع على النحو التالى « فلما قرىء عليهم - أى العرب - القرآن ، رأو حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جمله ، ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لاقبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة ، جنح فى خرفاته إلى ماحسبه نظماً موسيقيا ، أو باباً منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، وإنما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ماعداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٦٠ ، وراجع ص ٦١ من هذا البحث .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤ .

لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب ، هو عادتهم فى لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ، وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان وعن تسليم الأهل والذرية للسبى ، فلما لم تحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها .

« يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايدة ، لاسيما مع استعظامه مابدهه بالمجيء من خلع آلهته ، وتسفيه رأيه فى ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاء به ، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته ، والتصرف على حكم إرادته ، والعدول عن إلفه وعادته ، والانخراط فى سلك الاتباع بعد أن كان متبوعاً ، والتشييع بعد أن كان مشيعاً ، وتحكيم الغير فى ماله ، وتسليطه إياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة ، وعبادات متعبة بقوله ، وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه .

« هذا ، والحمية حميتهم ، والهمم الكبيرة هممهم ، وقد بذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لايتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين ، أو ينقطع دونه وتين ، أو يشتمل به خاطر ، وهو لسانهم الذى يتخاطبون به مع بلوغهم فى الفصاحة التى ليس وراءها متطلع ، والرتبة التى ليس فوقها منزع ؟!

« ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشتيت أسبابه . وكان من صدق به يرجع على أعقابه ، ويعود فى مذهب أصحابه ، فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة ، وكان أمره يتزايد حالا فحالا ، ويعلوا شيئا فشيئاً ،

وهم على العجز عن القدح فى آياته ، والطعن بما يؤثر فى دلالته ـ علم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته ، ولا على توهين حجته(١) » .

هذا ، ولم يتعرض الباقلانى لقصة التحدى بداية ونهاية ، وقد ذكر كثير من العلماء بعده(٢) أن بداية التحدى كان بمطالبة العرب أن يأتوا بمثل القرآن فى نظمه وبلاغته كما جاء فى سورة الطور (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله(٣)) ، ثم كانت المرحلة الثانية بمطالبتهم أن يأتوا بعشر سور مثله فى حسن النظم وإن كانت مفتريات كما جاء فى سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات(٤)) ، ثم كانت المرحلة الثالثة بمطالبتهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا النظم السامى كما جاء فى سورة يونس (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله(٥)) ، ثم كانت نهاية قصة التحدى بما جاء فى سورتى البقرة والإسراء ، حيث قال الله عز وجل فى السورة الأولى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(٦)) ، وقال سبحانه فى السورة الثانية (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٧) .

وأقول فى التعقيب على ذلك : إن الباقلانى باعتباره دارساً للبلاغة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) منهم القرطبى فى تفسيره انظر ٦٧/١ ، ٦٨ وابن كثير تفسيره ، انظر ٤١٧/٣ ، ٤١٨ ، ومنهم السيوطى فى كتابه إعجاز القرآن ١٤٩/٢ .

(٣) سورة الطور آية ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) سورة هود آية ١٣ .

(٥) سورة يونس آية ٣٨ .

(٦) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٧) سورة الإسراء آية ٨٨ .

القرآنية قد رأى أن الآيات القرآنية(١) تظهر أن التحدى لم يحدث مرة واحدة، ولا فى زمن واحد، ولا بصورة واحدة، ومن ثم فإن قصة ترتيب التحدى بداية وتدرجاً ونهاية تحتاج إلى دراسة المقامات التى وقع فيها التحدى فى كل مرة، وهذا مالا يقوم عليه دليل إلا التخمين والظن، ولهذا كان العدول عن هذا الأمر فى رأيه كدارس قاض أحسن من الولوج فيه، وقد وقع على هذا المعنى أحد الباحثين المحدثين حيث قال: «ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد، وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة، فيقول مرة: ائتوا بمثل هذا القرآن، أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور دون ترتيب زمنى، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من هذا القرآن، كله أو بعضه أو سورة منه على السواء، فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار، وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة، ولا يلزم ترتيب، إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون، ونوع مايقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة»(٢).

(ح) الصرفة:

أشار الباقلانى إلى حديث الصرفة فى موضعين من كتابه:

أولهما: عند حواره مع من جوزوا السجع فى القرآن حيث قال «ولا بد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام وعباد بن سليمان، وهشام الفوطى، ويذهب مذهبهم فى أنه ليس فى نظم

---

(١) آيات التحدى كلها نزلت بمكة (الإسراء، وهود، ويونس، والطور) عدا آية البقرة.

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٤/١٨٦١، ١٨٦٢.

القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ، وإنما صرفوا عنه ضرباً من الصرف »(١) .

وثانيهما : عندما تناول معانى هذه اللفظة (الصرفة) وتأويلاتها التى تعددت وقسمت بذلك القائلين بهذا المذهب فرقاً شتى ، وقد أوضح فيه الرأى الذى ذكره فى الموضع الأول على ماسنبينه الآن .

أورد الباقلانى ثلاثة معانى للفظة الصرفة فى صورة حوار دار بينه وبين معارضيه ، جاء على هيئة سؤال وجواب ، شمل السؤال معنيين اثنين ، بينما جاء فى نهاية جوابه على سؤال معارضيه المعنى الثالث ، على النحو التالى : « فإن قيل : فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم : إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة ـ كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف ، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع ، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلها ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة ، حتى يتكامل قدر الآية والسورة ؟ »(٢) .

نبدأ فى تحليل كلام الباقلانى فى هذا السؤال فنقسمه قسمين : القسم الأول يشمل قوله : « فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ؟ » ، والقسم الثانى يبدأ من أداة التحضيض (هلا) حتى نهاية السؤال .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

ونعتقد ـ والله أعلم ـ أن الباقلانى يشير بالقسم الأول إلى مقولة الجاحظ فى كتابه الحيوان : « ومثل ذلك ـ الإشارة وفق ما نفهم من كلامه لتدبير الله للدنيا ـ مارفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه بعضهم ذلك لجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملا ، ولطالبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال ، فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب ابن النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام ، الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك التدبير الذى لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له »(١) .

أما القسم الثانى فنعتقد أن الباقلانى يشير فيه إلى مقولة النظام التى سبق له أن عرضنا فى موضع حديثه الأول .

والفرق بين المقولتين : أن الجاحظ يرى أن القرآن معجز بالصرفة وبنظم البليغ السامى الذى لا يطمع العرب المتناهون فى الفصاحة فى القدرة عليه ، بل يحسون بفطرتهم بالعجز عن مجاراته ، ولو طمع فيه السفهاء المتكلفون منهم ـ كمسيلمة وأضرابه لتكلفوا حتى خرجوا إلى الهذيان وثبت عجزهم ، بينما يرى النظام أن القرآن ليس بمعجز ، وإنما المعجز هو المنع من معارضته ، والصرفة عند التحدى بمثله ـ كما قال القرطبى فى تفسيره ـ(٢) ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصد به من إيجاب الحجة .

---

(١) الحيوان ٨٩/٤ .

(٢) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن الكريم) ٦٦/١ .

ولقد حاول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى - جزاه الله جزاء المجتهدين - بيان الفرق بين الرأيين بطريقة أكثر إيضاحاً فاصطلح على الرمز لرأى الجاحظ بلفظ (الصرف) ، والرمز لرأى النظام بلفظ (الصرفة) حتى لايختلط كلا الرأيين على الباحثين(١) .

وإنما حللنا كلام الباقلانى إلى هذين القسمين استئناساً بقول القرطبى فى تفسيره عن حديث الصرفة « واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين : أحدهما : أنهم صرفوا عن القدرة عليه، ولو تعرضوا له لعجزوا عنه . والثانى: أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه فى مقدورهم ، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه »(٢) .

أما جواب الباقلانى على سؤال معترضيه فإننا يمكن أيضا أن نوزعه على القسمين السابقين ، يشمل الرد على القسم الأول قوله : « لو صح ذلك - الإشارة إلى النظم القرآنى الذى لايقدر العباد على مثله لوصوله إلى البلاغة المعجزة - لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار ، وصح لكل ناطق - قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة - نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ! ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن .

« على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه ، ومنع من مقدار الفصاحة فى نظم كان أبلغ فى الأعجوبة ، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله ، ومنعوا من معارضته ، وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع ، وإخراجه فى المعرض الفصيح العجيب » .

---

(١) راجع كتابه الإعجاز البلاغى ص ٣٦٣ .

(٢) تفسير القرطبى ٦٦/١ .

« على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه - الادعاء هنا هو قدرتهم على صنوف البلاغات غير القرآنية - لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجته ».

« فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان .

« وفيه معنى آخر ، وهو : أن أهل الصنعة فى هذا الشأن إذا سمعوا كلاماً مطمعاً لم يخف عليهم ، ولم يشتبه لديهم .

« ومن كان متناهياً فى فصاحته لم يجز أن يطمع فى مثل هذا القرآن بحال »(١).

أما الرد على القسم الثانى فيشمل قوله : « فإن قال صاحب السؤال : إنه قد يطمع فى ذلك . قيل له : أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمى قد يضارع القرآن ، وقد يزيد عليه فى الفصاحة ولا يتحاشاه ، ويحسب أن ما قد ألفه فى الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنى! ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر فى نفسه، ويحسبه ظان من أمره ، والمرجوع فى هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد .

« ومما يبطل ماذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها (الصرفة) لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه »(٢) .

هذا ، وقد أتى الباقلانى بالمعنى الثالث للصرفة - ولم يناقشه - عقب كلامه السابق فقال : « وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم : أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠ .

لو تعلموه لوصلوا إليه به »(١) ، وأعتقد أن الدكتور محمد عبد الله دراز كان يناقش هذا الرأى فى قوله : « على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادىء ذى بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه فى مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم : كيف عيوا به وهو منهم على طرف الثمام ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أى داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذى هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز لجاءوا بشىء منه فى محاذاته ، ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد ، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يخرون سجداً لسماعه من قبل أن تمضى مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم ، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صحيحاً : « ما هذا بقول بشر »(٢).

(د) الإخبار الصادق عن غيبيات الأمور :

على الرغم من دقة تعبير الباقلانى عن الرمانى فى إطلاقه تضمن القرآن الأخبار عن الغيب مطلقاً دون تحديد لزمنه ، إلا أنه التزم ، أو قل ، نقل شيئا مما كتبه الرمانى عن حديث القرآن عن الزمن المستقبل ، واكتفى بعد ذلك بقوله : « جميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الأخبار عن الغيوب يكثر جداً ، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل »(٣) .

ومما نقله عن الرمانى حديث القرآن عن ما وعد الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر دينه على الأديان كلها بقوله : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(٤) وتحقق ذلك فى الفتوحات التى تمت فى عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وحديثه عن وفاء الله عز وجل بما وعد رسوله أنه سينصره فى غزوة بدر

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ .
(٢) النبأ العظيم ص ٨٩ .
(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٤ .
(٤) سورة التوبة آية ٣٣ .

الكبرى بقوله (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم)(١) .

وقد نعذر الباقلانى فى عدم حديثه عن الغيب الماضى ونقول إنه قد تناوله فى الحديث عن أمية الرسول على ما سيأتى بيانه ، لكننا لا نجد مناصاً من أن نقول إنه أهمل حديث القرآن عن غيب الزمن الحاضر ، ونثبت نحن الآن شيئاً من ذلك فنقول : إن من يقرأ القرآن الكريم يجد الله قد أنبأ رسوله بكثير من المواقف التى حدثت فى الزمن المعاصر له ، وليس لها مصدر سوى هذا الأنباء ، من ذلك افتتاحية الله عز وجل لسورتى الممتحنة والتحريم ، ومن ذلك أيضاً حديث الله عز وجل عن خفى ما يبطنه المنافقون فى صدورهم بعيد افتتاحية سورتى البقرة والمجادلة ، بل إن افتتاحية سورة المجادلة نفسها من إنباء القرآن عن غيب الزمن الحاضر بمكان عظيم .

(ﻫ) أمية الرسول :

تناول الباقلانى فى حديثه الموجز عن أمية الرسول أنه صلى الله عليه وسلم مع أنه كان معلوماً من حاله أنه كان أمياً لا يكتب ، ولا يحسن أن يقرأ ، ولا يعرف شيئاً من كتب المتقدمين إلا أنه أخبر عن طريق قرآن الله عز وجل عن جمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير ، من ذلك قصة خلق الله آدم عليه السلام حتى مبعثه ، وقصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى إليه أمره وأمرهم ، وقصة إبراهيم عليه السلام إلى غير ذلك من سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين فى القرآن ، ومن ذلك أيضاً أخبار الملوك والفراعنة الذين كانوا فى أزمان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم وصل إلى ما يريد أن يصل إليه بقوله : « وإذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار ، ولا متردداً إلى التعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه

(١) سورة الأنفال آية ٧ .

لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى ، ولذلك قال الله عز وجل : (وما كنت تتلومن قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)(١) »(٢) .

٢ ـ حديث الباقلانى التفصيلى عن الإعجاز القرآنى :

أشرنا عند الحديث عن خطة الباقلانى فى دراسته للنظم القرآنى إلى أنه كان يهدف فى المقام الأول من بيانه للإعجاز القرآنى إلى أن هذا الإعجاز إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر إذا كان كامناً فى سمو بلاغته عن البلاغة البشرية ليس غير(٣) ، وأنه من أجل تحقيق هذا الهدف درس النظم البشرى المستعمل حتى يمهد القارىء تمهيداً طيباً يتمكن به من إدراك الإعجاز القرآنى إذا ما هو أشار له إليه ، لأن هـذا الإدراك أمر صعب يحتاج ـ كما قال ـ للإرشاد إليه ، خصوصاً بعد ضلال من ضل فى هذا السبيل ، سواء بالتطاول على القرآن بمقارنته بالشعر ، أو بمقارنته بالمعجزات الأخرى(٤) ، أو غير ذلك .

ونقول الآن : إنه بعد أن مهد قارئه هذا التمهيد الرائع استوقفه قبل أن يدخل معه فى حديث سمو البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية ليقول له :

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٨ .
(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٤ .
(٣) أى أن هذا الوجه هو الوجه الأوحد فى الإعجاز القرآنى .
(٤) يجب أن تتذكر فى هذا المقام أن الباقلانى قد أشار إلى أن من قارن القرآن بالشعر قد أبعد فى الضلال حتى فضل الشعر على القرآن ، وأن من قارن القرآن بالمعجزات الاخرى قد أبعد فى الضلال حتى جعل إعجازه خاصا بمن عاصر النبى صلى الله عليه وسلم من العرب لا يتعداه إلى العصور الاخرى لأن هؤلاء الذين عاصروه هم الذين خصوا بالتحدى فى زعمه .

« ونظم القرآن عالٍ عن أن يعلق به الوهم ، أو يسمو إليه الفكر ، أو يطمع فيه طامع ، أو يطلبه طالب (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(١) ، وكنت قد ذكرت لك قبل هذا : أنك إن كنت بصنعة علم اللسان متدرباً ، وفيه متوجها متقدماً ، أمكنك الوقوف على ما ذكرنا ، والنفوذ فيما وصفنا ، وإلا فاجلس فى مجلس المقلدين ، وارض بمواقف المتحيرين ، ونصحت لك حيث قلت : انظر ، هل تعرف عروق الذهب ومحاسن الجوهر وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها ؟ وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها ؟ ولكل شىء طريق يتوصل إليه به ، وباب يؤخذ نحوه فيه ، ووجه يؤتى منه .

« ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك وأعمق وأدق وألطف .

« وتصوير ما فى النفس ، وتشكيل ما فى القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده ، وإن كان قد يقع بالإشارة ، ويحصل بالدلالة والإمارة ، كما يحصل بالنطق الصريح ، والقول الفصيح ـ فللإشارات أيضا مراتب ، وللسان منازل ، ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ، ورب وصف يبر عليه ويتعداه ، ورب وصف يقصر عنه ، ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة وإتقان ، وحسن وإحسان ، وإلى إجمال وشرح ، وإلى استيفاء وتقريب ، وإلى غير ذلك من الوجوه ، ولكل مذهب وطريق ، وله باب وسبيل ، فوصف الجملة الواقعة ، كقوله تعالى : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً)(٢) ، والتفسير كقوله : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)(٣) إلى آخر الآيات فى هذا المعنى .

---

(١) سورة فصلت آية ٤٢ . (٢) سورة الكهف آية ١٨ .
(٣) سورة الكهف آية ٤٧ .

« وكنحو قوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)(١) .

« هذا مما يصور الشيء على جهته ، ويمثل أهوال ذلك اليوم، ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة ، كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا . (قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين)(٢) .

« وقال في موضع آخر (إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين(٣)) ، وهذا ينبيء عن كلام الحزين لما ناله ، الجازع لما مسه .

« ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون(٤)) وقوله (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين(٥)) ، وكقوله (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم(٦)) .

« وتقصى أقسام ذلك مما يطول ، ولم أقصد استيفاء ذلك ، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل ، وأشرت إليك بما أشرت لتتأمل(٧) » .

ثم بدأ يستعرض الأدلة على صدق رؤيته لمعنى الإعجاز القرآني الذي ارتآه ، فساق الدليل الأول وهو حديث الله عز وجل عن هذا القرآن ،

---

(١) سورة الحج الآيتان ١ ، ٢ . (٢) سورة الشعراء الآيتان ٥٠ ، ٥١ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٤) سورة يس آية ٨٢ . (٥) سورة البقرة آية ٦٥ .
(٦) سورة الشعراء آية ٦٣ .
(٧) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٤٣ - ٢٤٥ .

ومن أصدق من الله حديثا ؟ ! فقال : « خذ الآن - هداك الله - فى تفريغ الفكرة ، وتخلية البال ، وانظر فيما نعرض عليك ، ونهديه إليك ، متوكلا على الله ، ومعتصماً به ، ومستعيذاً به من الشيطان الرجيم ، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم .

« سماه الله عز ذكره « حكيما » و « عظيما » و « مجيدا » ، وقال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(١) ، وقال (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون(٢)) ، وقال (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا(٣)) ، وقال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهير)(٤) ، (٥) » .

ثم ساق الدليل الثانى وهو حديث الجن عن القرآن الكريم ، وهو الآية الكريمة (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به(٦) ، (٧) » .

ثم ساق الدليل الثالث ، وهو حديث الكون كله عن القرآن الكريم فقال : « ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواره ، وجلل الآفاق ضياؤه ، ونفذ فى العالم حكمه ، وقبل فى الدنيا رسمه ، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق ، ممدود الأطناب ، مبسوط الباع ، مرفوع العماد ، ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته ، أو يعبده حق

---

(١) سورة فصلت آية ٤٢ . (٢) سورة الحشر آية ٢١ :
(٣) سورة الرعد آية ٣١ . (٤) سورة الإسراء آية ٨٨ .
(٥) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٦) سورة الجن الآيتان ١ ، ٢ .
(٧) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٥ .

عبادته ، أو يدين بعظمته ، أو يعلم علو جلالته ، أو يتفكر فى حكمته ، فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور فقال (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)(١) »(٢) .

ثم انطلق بعد ذلك فى حديثه هو عن سمو البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية متبعاً خطة هى قمة الرقى الفكرى ، إذ بدأ باستعراض النظم القرآنى وحده دالا على معالم بلاغته سواء فى المعانى أو الأحكام أو الكلمات أو الجمل أو النظم بجملته للآية وحدها ثم السورة بعد ذلك . ثم للنظم القرآنى كله ، ثم ثنى بذكر النظم البشرى نثراً فذكر شيئا من كلام سيد البشر فصاحة وبلاغة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم شيئا من كلام صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، ثم أتبع ذلك بذكر شىء من كلام التابعين ، ثم امتد به القول فذكر شيئا من كلام الجاهليين قبل نزول القرآن الكريم من أمثال قس بن ساعدة الإيادى ، وأبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت إلى الشعر فذكر منه ما اتفق الناس على بلاغته فى الجاهلية وهو شعر امرىء القيس ، وما اتفق الناس على بلاغته فى الإسلام وهو شعر البحترى معقباً على كل ذلك بما يناسبه من حديث التفرقة بينه وبين كلام الله عز وجل .

وقبل أن نحلل حديثه هو عن سمو البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية نرى أن نبين صلة الأدلة الثلاثة الأولى التى ساقها بحديث البلاغة القرآنية المعجزة ، فإنها ربما تخفى على بعض القارئين لكتابه فنقول عن الدليل الأول : إن الباقلانى يشير بالآيات التى استعرضها إلى أن هذا القرآن

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

لم ينازعه أحد من الفصحاء فيبين باطلا من بين يديه أو من خلفه فى لفظه أو معناه أو نظمه أو حكمه أو تشريعه أو .... أو ... وهم الحريصون على أىّ من ذلك حتى يدفعوا عن أنفسهم ذل التحدى القرآنى .

وقبل أن نترك هذه النقطة نود أن نقول : إن الباقلانى أحس أنه قد يستدرك عليه هذا الدليل ويقال له قد قدح الملحد فى نظم القرآن وادعى عليه الخلل فى البيان ، وأضاف إليه الخطأ فى المعنى واللفظ وزعم مازعم ، وقال ما قال ، فأجاب : « الكلام على مطاعن الملحدة فى القرآن مما قد سبقنا إليه ، وصنف أهل الأدب فى بعضه فكفوا ، وأتى المتكلمون على ما وقع إليهم فشفوا ، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه فى كتابنا . وأما الغرض الذى صنفنا فيه فى التفصيل والكشف عن إعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذى قصدنا ، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافياً ، وإن سهل الله لنا ما نوينا من إملاء (معانى للقرآن) ذكرنا فى ذلك مايشتبه من الجنس الذى ذكروه لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه ، فإنما يقع على جهل القوم بالمعانى أو بطريقة كلام العرب ، وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) »(١) .

وأما عن الدليل الثانى فإن ماذكره الله عز وجل عن عجب الجن قد جاء مطلقاً دون تقييد بشىء معين ، وإذا كان الأمر كذلك فإن من بين العجب والدهشة تلك الفصاحة القرآنية الخارقة لطاقة الفصحاء من المخلوقين أياكانوا ، وربما كان من الانصاف بعد ذلك أن أسكت عن كيفية فقه الجن لبلاغة القرآن .

وأما عن الدليل الثالث فإن الباقلانى يشير به ـ والله أعلم ـ إلى لسان حال

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٦ .

الكون الذى صدع بأمر الله فاستجاب للقرآن فلم يظهر فيه شىء يخالف ماجاء فى القرآن الكريم فتلك هى البلاغة الصامتة حقيقة، الناطقة اعتباراً كما جاء فى حديث الجاحظ فى الاستدلال على قدرة الله عز وجل(١) .

ونأتى الآن إلى تحليل الباقلانى للنظم القرآنى فنذكر من حديث المعانى القرآنية قوله : « قوله سبحانه (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا(٢)) يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية ، وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير - تميز عن جميعه، وكان واسطة عقده(٣) ، وفاتحة عقده(٤) ، وغرة شهره ، وعين دهره .

« وكذلك قوله (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فجعله روحاً لأنه يحيى الخلق ، فله فضل الأرواح فى الأجساد ، وجعله نوراً لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق، ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته ، وبين أنه لم يكن ليهتدى إليه لولا توفيقه ،

---

(١) فى البيان والتبيين أن جميع أصناف الدلالات على المعانى خمسة أشياء : اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال الدالة. والحال الدالة هى الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر فى خلق السماوات والأرض، وفى كل صامت وناطق، وجامد ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص ، فالدلالة التى فى الموات الجامد كالدلالة التى فى الحيوان الناطق ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان ، ولذلك قال الأول : سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً - راجع البيان والتبيين ١/٧٦ - ٨١ .

(٢) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٣) بكسر العين وسكون القاف : فى الأصل : الخيط الذى ينظم فيه الخرز ، ثم أصبح اسماً للخرز نفسه .

(٤) بفتح العين وسكون القاف : البناء .

ولم يكن ليعلم ما فى الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه وأنه لم يكن ليهتدى — فكيف كان يهدى — لولاه فقد صار يهدى ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى فقال (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور(١)) ، فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث(٢) : فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان ، وقوله (ألا إلى الله تصير الأمور) كلمة منفصلة مباينة للأولى ، قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤالف ، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم ، وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته(٣) » .

ومن حديث الأحكام قوله « قوله عز وجل (يسألونك ماذا أحل لهم ؟ قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب(٤)) أنت تجد فى هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع الغريب مايدلك — إن شئت — على الإعجاز مع هذا الاختيار والإيجاز فكيف إذا بلغ ذلك آيات أو كانت سورة ؟(٥) » .

ومن حديث الكلمات قوله « قوله سبحانه (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه(٦)) هل تقع فى الحسن موقع قوله : (ليأخذوه) كلمة ؟ وهل تقوم مقامه فى الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسده فى الأصالة نكتة ؟ لو وضع موضع

---

(١) سورة الشورى الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) اصطلح الباقلانى على تسمية الجملة القرآنية كلمة .
(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٧ .
(٤) سورة المائدة آية ٤ .
(٥) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٦) سورة غافر آية ٥ .

ذلك « ليقتلوه » أو « ليرجموه » أو « لينفوه » أو « ليطردوه » أو « ليهلكوه » أو « ليذلوه » ونحو هـــذا ما كان ذلك بديعاً ولا بارعاً ولا عجيباً ولا بالغاً »(١) .

ومن حديث الجمل قوله « قوله سبحانه (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم(٢)) انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها ، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها فى نفسه غرة ؟ وبمنفردها درة ؟ ، وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى فى بهجة القدرة ، ويتحلى بخاصة العزة ، ويجمع السلاسة إلى الرصانة والسلامة إلى المتانة والرونق الصافى والبهاء الضافى ، ولست أقول : إنه شمل الاطباق المليح ، والايجاز اللطيف ، والتعديل والتمثيل ، والتقريب والتشكيل ـ وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه ـ لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة ، أو وجه قصيدة أو فقرة ، فإذا ألفت ازدادت به حسناً وإحسانا ، وزادتك ـ إذا تأملت ـ معرفة وإيماناً(٣) » .

ومن حديث نظم الآية قوله « قوله عز وجل (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم(٤)) هل تجد كل لفظة ، وهل تعلم كل كلمة ، تستقل بالاشتمال على نهاية البديع ، وتتضمن شروط القول البليغ ؟ فإذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات ، فكيف لا تفوت

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٩٧ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٦ .

(٣) إعجاز القرآن الباقلانى ص ١٨٨ .

(٤) سورة يس الآيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

حد المعهود ولا تجوز شأو المألوف ؟ وكيف لا تحوز قصب السبق ولا تتعالى عن كلام الخلق »(١) .

أما عن حديث نظم السورة والقرآن عامة فإنى أحيل القارىء ـ خوف الإطالة فى النقل ـ على ما كتبه فى تحليل السور الكريمة : النمل ، والقصص ، وغافر .

وأنقل ـ الآن ـ قوله معقبا على حديثه الذى استعرض فيه القرآن : « كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها ، لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم ، ونفور الطبع ؛ وشراد الكلام، وتهافت القول وتمنع جانبه، وقصورك فى الإيضاح عن واجبه ، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة ، وفصل إلى فصل ، حتى تتبتر عليك مواضع الوصل ، وتستصعب عليك أماكن الفصل ، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالا سائرة ، وحكماً جليلة ، وأدلة على التوحيد بينة ، وكلمات فى التنزيه والتحميد شريفة .

« وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين ، هل تجد كلامه فى المديح والغزل والفخر والهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص ؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف وقعة أو نقل خبر عامى الكلام ، سوقى الخطاب ، مسترسلا فى أمره ، متساهلا فى كلامه ، عادلا عن المألوف من طبعه ، وناكبا عن المعهود من سجيته ، فإن اتفق له فى قصة كلام جيد ، كان قدر ثنتين أو ثلاثة ، وكان ما زاد عليها حشواً ، وما تجاوزها لغواً ، ولا أقول : إنها تخرج من عادته عفواً ، لأنه يقصر عن العفو ، ويقف دون العرف ، ويتعرض للركاكة .

« فإن لم تقنع بما قلت لك من الآيات فتأمل غير ذلك من السور ، هل

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

تجد الجميع على ما وصفت لك ؟ لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت فى الإعجاز ، فكيف بالقرآن العظيم ، ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى ، وأقنع وشفى(١) » .

هذا عن استعراض الباقلانى للنظم القرآنى وبيان أنه لا يختل بلاغة ، ولا يعتل فصاحة ، بل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما عن استعراضه لفصاحة أعظم البشر ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قد ذكر له صلى الله عليه وسلم عشرة نصوص ، ما بين خطبة ورسالة وكتاب صلح ، ثم عقب عليها قائلا لمخاطبه : « إن كان لك فى الصنعة حظ ، أو كان لك فى هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب فى الأدب بسهم ، أو فى العربيـــة بقسط ـ وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب ـ فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ، ويتساقط إليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً ، وأمداً مديداً ، وميداناً واسعاً ، ومكاناً شاسعاً . . . فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهى ، وأن كلام النبى صلى الله عليه وسلم من الأمر النبوى(٢) » .

وفى تعقيب الباقلانى على ما ذكره من كلام الصحابة والتابعين الجاهليين يقول : « قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم ، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة فى هذا الشأن ، فتأمل ذلك وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف ، وأهل البيان واللسن ، والفصاحة والفطن ، والألفاظ المنثورة ، والمخاطبات الدائرة بينهم ، والأمثال المنقولة عنهم ، ثم انظر بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

لب ، وجمع عقل - فى ذلك ، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين . وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ، وتعلم الحد الذى يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ ، والخطيب والخطيب ، والشاعر والشاعر ، وبين نظم القرآن جملة(١) » .

هذا كله عن حديث النثر البشرى ، أما حديث الشعر فإنه قد تناول فيه بالتفصيل شرح خلل كل من امرىء القيس - من الجاهليين - والبحترى - من الإسلاميين - لأن الأول - كما قال عنـــه - « كبيرهم الذى يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذى يعترفون بفضله ، وقائدهم الذى يأتمون به ، وإمامهم الذى يرجعون إليه »(٢) ، ولأن الثانى - كما نقل عنه أيضا - « الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من فى عصره ، ومنهم من يدعى له الإعجاز غلوا ، ويزعم أنه يناغى النجم فى قوله علوا ، والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكثر بقوله ، وترى كلامه من شبهاتهم ، وعباراته مضافة إلى ماعندهم من ترهاتهم »(٣) ثم عقب على ذلك قائلا : « قد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ، ومهدنا الطريق فمن كمل طبعه للوقوع على فضل أجناس الكلام استدرك مابينا ، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل ، والحكم بين فضل زهير والنابغة ، أو الفصل بين البحترى وأصحابه ، ولم يعرف سخف مسيلمة فى نظمه ، ولم يعلم أنه من الباب الذى يهزأ به ويسخر منه ، كشعر أبى العنبس(٤)

---

(١) المرجع السابق ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٤) أبو العنبس هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أبى العنبس بن المغيرة بن ماهان ، أحد الأدباء الملحاء ، كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعـــراء زمانه ، ونادم المتوكل ، وله مع البحترى خبر مشهور ، توفى سنة خمس وسبعين ومائتين - عن المحقق ، حاشيته ص ٢٤٦ .

فى جملة الشعر ، وشعر على بن صلاءة ، فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا ، والحكم على ما بينا ؟ ! »(١) .

على أنه بعد ذلك كله خلص إلى النتيجة التى يريدها فقال : « إن الذى عارض القرآن بشعر امرىء القيس لأضل من حمار باهلة ، وأحمق من هبنقة ، لو كان شعره كله كالأبيات المختارة التى قدمناها لأوجب البراءة منه قوله :

وسن كسنيق سناء وسنما ذعرت بمدلاج الهجير نهوض(٢)

قال الأصمعى : لا أدرى ما السن،ولا السنيق ، ولا السنم ؟ ! وقال بعضهم: السنيق : أكمة .... ولم يقع مثل ذلك له وحده ، فقد قال الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول(٣)

وهذه الألفاظ فى معنى واحد .... وقد وقع لزهير نحوه كقوله :

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وماسحفت فيه المقاديم والقمل(٤)

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) سن : ثور ، سنيق : بضم الأول وتشديد وفتح الثانى وسكون الثالث :جبل، سناء : ارتفاعاً ، سنم : بضم الأول وتشديد وفتح الثانى : بقرة ، مدلاج : بكسر الأول وسكون الثانى من دلج ، إذا مشى ، وليس من أدلج ولاادلج ، وكيف يدلج فى الهجير أو يدلج ـ نقله المحقق عن ابن قتيبة فى المعانى الكبير ـ انظر حاشيته ص ٢٤١ .

(٣) رجل مشل وشلول وشلشل وشول : خفيف سريع ، وفى المعانى الكبير لابن قتيبة : الشاوى: الذى شوى ، والشلول: الخفيف ،والمشل : المطرد ، والشلشل ، الخفيف القليل ، وكذلك الشول ، والألفاظ متقاربة ، أريد بذكرها والجمع بينها المبالغة ـ انظر حاشية المحقق ص ٢١٤ .

(٤) سحفت: بضم الأول وكسر الثانى،حلقت، المنازل : حيث ينزل الناس =

كيف يقول هذا فى قصيدة يقول فيها :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ‏ ‏ ‏ ‏ وتغرس إلا فى منابتها النخل(١)

وكقول الطرماح :

سوف تدنيك من لميس سبنتا ‏ ‏ ‏ ‏ ة أمارت بالبول ماء الكراض(٢)

السبنتاة : الناقة الصلبة ، والكراض : ماء الفحل ، أسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف ، والمائر : السائل .... »(٣) .

هذا ، وقد استدرك الباقلانى على معارضيه ما يجول فى خاطرهم من باطل القول فقال : « وليس لقائل أن يقول : قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ، ويبلغ أمده فى الفصاحة والنظم العجيب ، ولا يبلغ عندكم حد المعجز ، فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام ؟

وإنما لم يصح هـــذا السؤال وما نذكر فيه من أشعار فى نهاية الحسن ، وخطب ورسائل فى غاية الفضل ـ لأنا قد بينا أن هذه الأجناس وقد وقع التنازع فيها ، والمساماة عليها ، والتنافس فى طرقها ، والتنافر فى بابها . وكان البون بين البعض والبعض فى الطبقة الواحدة قريبا ، والتفاوت خفيفاً ، وذلك القدر من السبق إن ذهب عنه الواحد ، لم ييأس منه الباقون ، ولم ينقطع الطمع فى مثله .

« وليس كذلك سمت القرآن لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته ،

= من منى ، والمقاديم : مقاديم الرءوس ، والقمل ، يريد الشعر الذى فيه القمل ـ عن المحقق ، انظر حاشيته ص ٢١٤ .

(١) الخطى : الرماح ، نسبها إلى الخط ، وهى جزيرة ترسل إليها سفن الرماح ، الوشيج : القناة ، واحدها : وشيجة ، والوشوج : دخول الشىء بعضه فى بعض .

(٢) الكراض . ماء الفحل فى رحم الناقة .

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢١١ - ٢١٤ بتصرف .

والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته ، وأن الكل فى العجز عنـــه على حد واحد .

« وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لايؤخذ فيه، والباب الذى لايذهب عنه، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً، ومنهاجه معيباً ، ونطاق قوله ضيقا ، حتى يستعين بكلام غـــيره ، ويفزع إلى مايوشح به كلامه : من بيت سائر ، ومثل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة ، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خالياً عن شىء يستعين به - فيخلط بقوله من قول غيره - كان كلاماً ككلام غيره ، فإن أردت أن تحقق هذا فانظر فى كتبه فى (نظم القرآن) وفى (الرد على النصارى) وفى (خبر الواحد) وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، هل تجد فى ذلك كله ورقة واحدة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح ؟

على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه فى طريقته ، وجاذبوه على منهجه ، فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم من أبر عليه إذ باراه »(١) .

قيمة جهود الباقلانى فى دراسته للنظم القرآنى من حيث الدرسين البلاغى والنقدى :

تعتبر دراسة الباقلانى دراسة رائدة من أى ناحية أتيتها ، وإذا كان لايعنينا هنا إلا المجالين البلاغى والنقدى فإننا نقول : إن الباقلانى من الناحية البلاغية قد رفض منهج القدماء قبله فى دراسة البلاغة الجزئية ، واختط لنفسه منهجاً جديداً هو منهج دراسة بلاغة النظم ذاته ، بمعنى أنه لم يبحث - كما فعل قدامة بن جعفر الذى يعتبره العلماء صاحب منهج جديد فى البلاغة - اللفظ

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وحده ، ثم المعنى وحده ، ثم ائتلافهما ، ثم عيوبهما .... إلخ ، ولم يسلك - كما سلك أبو هلال العسكرى - دراسة البلاغة والفصاحة وجزئياتهما فى كلام مبتور ، وحدته الجملة من النثر ، والبيت من الشعر ، ولم ير ما رأى الجاحظ فى دراسة البلاغة جمع الأقوال الجيدة والرديئة حول ما يريد من موضوعات ، بل رأى أن البحث البلاغى الجيد إنما يكمن فى دراسة وحدة نظامية متكاملة ، هى بالنسبة للبلاغة البشرية ديوان الشاعر كله أو القصيدة الكاملة بالنسبة للشعراء ، وعمل الأديب كله أو الخطبة التامة أو الرسالة التامة أو .... بالنسبة للأدباء الناثرين ، وبالنسبة للبلاغة الإلهية القرآن الكريم كله أو السورة القرآنية التامة على أقل تقدير .

أما من الناحية النقدية فإنه قد اتبع أحدث المناهج المعروفة فى أوربا الآن(١) فى دراسته المقارنة بين النظم القرآنى والنظم البشرى ، وهو المنهج الإحصائى ، حيث أحصى أساليب العرب وعاداتهم فى كلامهم فى خمسة أنواع ثم رأى أن القرآن الكريم يخرج عن هاته الأنواع كلها ، والمنهج الوصفى ، حيث أحسن بيان ما فى النظم البشرى من تفاوت واقعى فى الجودة والرداءة عند الانتقال بين أغراض الشعراء من غرض إلى غرض ، وحيث أجاد عرض ما فى النظم القرآنى من انسجام وائتلاف بين الآيات على الرغم من تعدد أغراضها ومعانيها ، ومن ثم فنحن نعده ناقداً رائداً لعصره وعصرنا الحديث .

ولا أدل على نجاح منهج الباقلانى وجِدَّتِه فى دراسة النظم القرآنى جملة وتفصيلا من الناحيتين البلاغية والنقدية من اقتفاء الدارسين المحدثين له ، حيث اقتفاه فى المنهج على سبيل الاجمال والتفصيل الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) ، يلمس ذلك أى قارىء ، حتى من يستعرض فهرس الكتاب فحسب ، واقتفاه فى كثير من التفصيلات والمباحث الأستاذ

---

(١) راجع فى هذه المناهج كتابنا : اتجاهات الفكر الأوربى الرئيسية فى تحليل النصوص الأدبية ص ١٣٥ .

مصطفى صادق الرافعى ، يلمس ذلك من يقرأ حديثه فى الفصل الذى عقده عن أسلوب القرآن(١) ، خاصة وصف أسلوب العرب حين نزول القرآن ، وجهة الإعجاز القرآنى ، وسبيل المعارضة الذى يتعارف عليه العرب ، والتفاوت بين نظم الفصحاء العرب ، وعدم التفاوت فى النظم القرآنى ، كذلك أيضا الفصل الذى عقده عن البلاغة فى القرآن(٢) ، خاصة فكرة عدم تفاوت النظم القرآنى مع وجود هذا التفاوت فى الكلام الفصيح لدى العرب ، وغيرهما من المؤلفين المعاصرين مع فارق بسيط يمكن أن نذكره لهؤلاء المحدثين إنصافاً وتقديراً هو فارق الثقافة المعاصرة التى تلبس الأفكار جدة وحداثة .

هذا عن اقتفاء المحدثين لطريقة الباقلانى ، أما عن مؤاخذاتهم عليه ، فنذكر فى هذا المقام ما أخذه عليه الشيخ محمود محمد شاكر فى تقديمه لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى من الإسراف فى ذكر خلل الشعر الجاهلى وعيبه حتى أصبح حديث هذا الشعر بين المؤلفين بعده هو حديث المؤاخذة فحسب ، وقد كان الأولى بالباقلانى - فى نظر الشيخ - أن يستخرج خصائص بيان هذا الشعر ، ثم يثبت مفارقته لخصائص البيان القرآنى(٣) ، ويصل إلى غرضه الذى يريده أيضا ، وهو إثبات إعجاز القرآن للعرب الفصحاء .

كما نذكر أيضا ما أخذه عليه الدكتور محمد أبو موسى فى كتابه الإعجاز البلاغى - دراسة تحليلية لتراث أهل العلم - عند استعراض حديث الباقلانى عن وجوه الإعجاز القرآنى ، حيث إن الباقلانى يعتبر أن من وجوه الإعجاز

---

(١) راجع إعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٨ - ٢٠٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥٦ - ٢٦١ .
(٣) راجع ص ٤٣ - ٤٦ مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية .

القرآني الخارق للعادة الإتيان بالمعاني الجديدة غير المألوفة(١) في الثوب اللفظي البارع ، فقد رد سيادته هذا المعنى على الباقلاني شارحاً قضية اتحاد اللفظ والمعنى، مستشهداً برأي إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني الذي يبين فيه أن من المستحيل أن يرتب الأديب المعاني في نفسه ، ثم يستأنف بعد ذلك ترتيباً للألفاظ على وفق هذه المعاني(٢) .

ونحن نأخذ عليه بعد ذلك مأخذاً أخلاقياً كان يجب أن يرتفع عنه خاصة أنه من رجال القضاء الذين تحتم عليهم مهنتهم الإنصاف والعدل هو الاستخفاف بأهل العلم قبله ، ونسبة مايشين إليهم ، وأقل ذلك التقصير والجهل في حديث الإعجاز القرآني حيث قال : « وقد كان يجوز أن يقع من عمل الكتب النافعة في معاني القرآن وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته ، والدلالة على مكانه ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة ودقيق الكلام في الأعراض ، وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو ، فالحاجة إلى هذا أمس ، والاشتغال به أوجب ، وقد قصر بعضهم في هذه المسألة حتى أدى ذلك إلى تحول قول منهم إلى مذهب البراهمة فيها ، ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا مستنصر فيها ، ولا وجه لها ، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا ، ثم رأوا ماصنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مستوفى في وجهه ، قد أخل بتهذيب طرقه ، وأهمل ترتيب بيانه ، وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه ، وذهاب عنه ، لأن هذا

(١) من المعاني القرآنية الجديدة : المعاني الشرعية في أصول الدين . أحوال النفوس البشرية وتباينها ، أحوال القيامة ، أحوال الخلق وأطوار النشأة الإنسانية .
(٢) راجع ص ٢٢٨ – ٢٣٣ الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى .

الباب مما لا يمكن إحكامه إلا بعد التقدم فى أمور شريفة المحل ، عظيمة المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المأخذ »(١) .

كما نأخذ على محقق كتاب الباقلانى السيد أحمد صقر عدم التريث فى تحقيق بعض عبارات الكتاب ، من ذلك : الفقرة التى تتعلق بعلو شأن القرآن وعدم احتذائه لمثال سابق عليه ، وتقع فى الصفحة الثانية عشرة بعد المائة ، ومن ذلك الفقرة التى تبرىء رسول الله صلى الله عليه وسلم من تأليف القرآن ، وتقع فى الصفحة الرابعة والتسعين بعد المائتين وغيرهما(٢) .

وبعد ، فإن للباقلانى جهداً لابد أن يشكر ولا ينكر ، ذلك أنه جهد محمود بكل المقاييس ، ويلحظه من هو متعلق بالبحث العلمى ومعاناته أيما تعلق ، ويكفى فى ملاحظة إخلاصه لبحثه أنه قد صنعه ليتقرب به إلى الله سبحانه ، ونسأل الله عز وجل أن يثيبه على هذا العمل خير الجزاء ، وأن يدخله به الجنة ، وأن يلحقنا به فيها ، إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٥ .

(٢) انظر أيضاً ٤١ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، وتذكر أن دراستنا فى الطبعة الخامسة للكتاب .

أهم مصادر البحث ومراجعه

١ ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى ـ مصطفى الحلبى ط ٤ سنة ١٩٧٨ .

٢ ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربى ـ د/ محمد زغلول سلام ـ ط ١ مكتبة الشباب سنة ١٩٧٢ .

٣ ـ الإعجاز البلاغى ـ دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ـ مكتبة وهبه ط ١ سنة ١٩٨٤ .

٤ ـ الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق ـ د/عائشة عبدالرحمن دار المعارف بمصر .

٥ ـ الإعجاز الفنى فى القرآن ـ عمر السلامى ـ مؤسسات عبد الكريم ابن عبد الله ـ تونس ١٩٨٠ .

٦ ـ إعجاز القرآن للباقلانى ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ ط ٥ دار المعارف بمصر .

٧ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعى ـ دار الفكر العربى .

٨ ـ الإعجاز القرآنى ، وجوهه وأسراره ـ د : عبد الغنى بركة ـ مكتبة وهبه ط ١ سنة ١٩٨٩ .

٩ ـ أسرار البلاغة للامام عبد القاهر الجرجانى ـ تحقيق د : محمد عبد المنعم خفاجى ط ١ مكتبه القاهرة سنة ١٩٧٢ .

١٠ ـ أسس النقد الأدبى عند العرب ـ د : أحمد أحمد بدوى ـ دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩ .

١١ - أمالى المرتضى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) ط ١ سنة ١٩٥٤ .

١٢ - الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن - دراسة تحليلية نقدية - دار مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٧٨ .

١٣ - بحث فى علم الجمال - تأليف جان برتليمى - تحقيق د . أنور عبدالعزيز - مؤسسة فرانكلين يوليو ١٩٧٠ .

١٤ - بديع القرآن لابن أبى الأصبع المصرى - د . حفنى محمد شرف - ط ٢ دار نهضة مصر للطبع والنشر .

١٥ - البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون ط ٣ سنة ١٩٦٨ ، ط ٥ سنة ١٩٨٥ مكتبة الخانجى .

١٦ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى - طبع السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .

١٧ - تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن الكريم) - طبعة الشعب .

١٨ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) .

١٩ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن - تحقيق محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام - دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٧٢ .

٢٠ - الحق الدامغ - الشيخ أحمد بن حمد الخليلى مفتى سلطنة عمان - مطابع النهضة بمسقط سنة ١٤٠٩ هـ .

٢١ - الحيوان للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - ط ٢ مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٦٥ .

٢٢ - الخصائص لابن جنى - تحقيق محمد على النجار - دار الهدى للطباعة والنشر ببيروت ط ٢ .

٢٣ - خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية - أطروحه دكتوراه للدكتور عبد العظيم المطعنى - مطبعة زهران سنه ١٩٧٣ .

٢٤ ـ دراسات حول الإعجاز البيانى فى القرآن . د . المحمدى عبد العزيز الحناوى ـ ط ١ دار الطباعه المحمديه سنه ١٩٨٤ .
٢٥ ـ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ـ تعليق محمود محمد شاكر ـ الخانجى ط ٢ سنه ١٩٨٩ .
٢٦ ـ سر الفصاحه لابن سنان الخفاجى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ سنه ١٤٠٢ هـ .
٢٧ ـ سيرة ابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ ط ٢ مصطفى الحلبى سنه ١٩٥٥ .
٢٨ ـ شذرات البلاتين من طيبات كلمات سلفنا الصالحين (الجزء الأول) مطبعه السنه المحمدية سنه ١٩٥٦ .
٢٩ ـ شروح التلخيص للخطيب القزوينى وآخرين ـ عيسى البابى الحلبى .
٣٠ ـ الصناعتين لأبى هلال العسكرى ـ تحقيق على محمد البجاوى ، وأبو الفضل إبراهيم ـ عيسى البابى الحلبى .
٣١ ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ مطبعه المدنى .
٣٢ ـ الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ـ دار الكتب العلمية ببيروت .
٣٣ ـ الظاهرة القرآنيه ـ مالك بن نبى ـ دار الفكر بدمشق سنه ١٩٨٠
٣٤ ـ عيار الشعر لابن طباطبا ـ تحقيق د . عبد العزيز بن ناصر المانع ـ دار العلوم للطباعه والنشر بالرياض سنه ١٩٨٥ .
٣٥ ـ العمدة لابن رشيق ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ببيروت ط ٤ سنه ١٩٧٣ .
٣٦ ـ فكرة إعجاز القرآن منذ البعثه النبويه حتى عصرنا الحاضر ـ نعيم الحمصى ـ مؤسسه الرسالة ببيروت ط ٢ سنه ١٩٨٠ .
٣٧ ـ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ط ١١ سنه ١٩٨٥
٣٨ ـ المغنى فى أبواب التوحيد والعدل للقاضى عبد الجبار ـ الجزء ١٦

الخاص بإعجاز القرآن - تحقيق أمين الخولى - طبع دار الكتب المصرية ط ١ سنه ١٩٦٠ وزارة الثقافة والارشاد القومى - نشر الشركة العربية للطباعه والنشر .

٣٩ - مقالات الكوثرى - الشيخ محمد زاهد الكوثرى - لم تذكر مطبعة أو مكتبة أو تاريخ .

٤٠ - مناهل العرفان فى علوم القرآن - الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى - مطبعه عيسى البابى الحلبى .

٤١ - من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوى - دار نهضه مصر للطبع والنشر .

٤٢ - الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى - تحقيق - السيد أحمد صقر - دار المعارف ط ٢ سنه ١٩٧٢ .

٤٣ - النبأ العظيم - د . محمد عبدالله دراز - دار القلم بالكويت ط ٤ سنه ١٩٧٧ .

٤٤ - النثر الفنى فى القرن الرابع - زكى مبارك - دار الكاتب العربى بالقاهرة .

٤٥ - نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب - د . محمد السعدى فرهود - ط ١٩٧٥ - دار الطباعه المحمدية .

٤٦ - نقد الشعر لقدامه بن جعفر - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى - دار الكتب العلمية ببيروت .

٤٧ - النقد المنهجى عند العرب - د . محمد مندور - دار نهضه مصر ١٩٧٢

٤٨ - اتجاهات الفكر الأوربى الرئيسية فى تحليل النصوص الأدبية - د . عبد العزيز أبو سريع - مطبعة السعادة - ط ١ سنه ١٩٩١ .

٤٩ - وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط ١ مكتبه النهضه سنه ١٣٦٧هـ .

دليل البحث

الموضوع	الصفحة
الاهداء .	٣
تصدير .	٥
توطئة : حاجة الموضوع إلى بحث .	٧
العناصر الدراسية لهذا البحث .	٨
من هو الباقلانى ؟	٨
لم درس الباقلانى النظم القرآنى ؟	١٠
خطة الباقلانى التأليفية فى دراسة النظم القرآنى وهدفه .	١١
جهود الباقلانى فى دراسة النظم القرآنى تنحصر فى ثلاث مراحل:	١٣
المرحلة الأولى : دراسة النظم البشرى المثالى .	١٤
أولا : نظم اللغة العربية هو النظم المثالى للغات البشرية .	١٥
ثانيا : اختلاف أهل الصنعة فى هذه اللغة على ماهية البلاغة المثالية .	١٨
ثالثا : المفاضلة بين بلاغة النظم الشعرى وبلاغة النظم النثرى .	٢٠
المرحلة الثانية : دراسة النظم البشرى المستعمل لدى العرب .	٢٣
أولا : حصر أجناس النظم البشرى المستعمل لدى العرب .	٢٣
ثانيا : دراسة هذه الأجناس (يحصرها الباقلانى فى الشعر والسجع) .	٢٥

الموضوع	الصفحة
١ ـ دراسة الشعر عند الباقلانى فى اتجاهين : نظرى وتطبيقى.	٢٧
الاتجاه النظرى :	٢٧
الاتجاه التطبيقى :	٣٢
٢ ـ دراسة السجع عند الباقلانى :	٤٥
ثالثا : بلاغة النظم البشرى المستعمل لدى العرب	٥٢
المرحلة الثالثة : دراسة النظم القرآنى :	٥٦
أولا : ماهية النظم القرآنى .	٥٦
ثانيا : مخالفه النظم القرآنى لأى صورة من صور النظم الحادث .	٦٣
ثالثا : وجوه إعجاز النظم القرآنى .	٧١
١ ـ إشارات الباقلانى الموجزة لحديث السابقين عليه فى مجال الإعجاز .	٧٣
٢ ـ حديث الباقلانى التفصيلى عن الإعجاز القرآنى .	٨٧
قيمة جهود الباقلانى فى دراسته للنظم القرآنى من حيث الدرسين البلاغى والنقدى .	١٠١
أهم مصادر البحث ومراجعه .	١٠٧
دليل البحث .	١١١

١٩٩١/٩٦٢٦

٩٧٧ - ٠٠ - ٢٥١٩ - ٤